التقدمي

نشرة شهرية يصدرها المنبر التقدمي - مملكة البحرين SDPA 499 العدد 191 السنة 21 - اكتوبر 2023

عجز موازنة النصف الأول من 2023

أسئلة مشروعة

مسرحو «طيران الخليج» وحال المراوحة 11

معوّقات الحصول على النفقة 13-12

كيف أصبح ناظم حكمت ثوريا؟ 25-24

موقفنا

الفصل التعسفي وتفاقم البطالة

إنشغل الرأي العام بقضية قيام الناقلة الوطنية، شركة طيران الخليج، بفصل 35 من موظفيها البحرينيين بطريقة مهينة، حيث بُلّغوا بقرار الفصل في نفس يوم فصلهم، مع أن بعضهم خدم الشركة لعدة عقود، بحجة إعادة الهيكلة، وهي القضية التي أولاها مجلس النواب اهتمامه ايضاً، فيما نددت بالفصل عدة جمعيات سياسية، بينها المنبر التقدمي، الذي أصدر بياناً مستقلاً حول الموضوع، كما كان إحدى الجمعيات الموقعة على البيان المشترك، الذي قالت فيه الجمعيات: «إن الدولة قامت بصرف مئات الملايين من الميزانية العامة على دعم هذه الشركة وتمكينها من مواصلة عملياتها، وكان أحقّ أن تُصرف هذه الأموال على دعم معيشة المواطنين».

يأتي فصل عشرات الموظفين البحرينيين من عملهم في الشركة كجزء من أزمة عامة تعاني منها البلد، هي البطالة التي تشمل أعداداً هائلة من المواطنين، غالبيتهم من الشباب بمن فيهم حملة الشهادات الجامعية والعليا في تخصصات مختلفة، والشركة تعلم أن تسريح هؤلاء الموظفين سيلقي بهم أيضاً في متاهة البطالة نفسها، ليضافوا إلى بقية العاطلين.

تتناقض إجراءات الفصل مع ما تعلنه الحكومة من برامج ومبادرات لتوظيف المواطن البحريني، وأحقيته في التوظيف، للتغلب على معاناة عوائل كثيرة، تشاهد أبناءها بلا عمل لسنوات طويلة، مما يطرح عدة أسئلة حول مدى وفاء الدولة بالتزاماتها تجاه مواطنيها، بصفتها ضامناً للاستقرار والأمن المعيشي، وهو الأمر الذي دعا القوى السياسية ومؤسسات المجتمع المدني لمطالبتها بإيجاد حلول بديلة، لا تنال من لقمة عيش المواطن، وتوفير فرص العمل للمواطنين وتأمين استدامتها والالتزام بالخطط الوطنية وبرامج وخطط البحرنة والالتزام بما نصّ عليه برنامج عمل الحكومة لسنوات 2023-2026 في محور التعافي الاقتصادي، كما أشار إلى ذلك بيان المنبر التقدمي.

لا تنفصل هذه القضية عن قضية أخرى مهمة ينشغل بها المجتمع البحريني بكافة مكوّناته، ألا وهي الضرائب والرسوم التي يتوالى فرضها على كاهل المواطنين لاستنزاف ما في جيوبهم من أجل التغلب على الصعوبات الاقتصادية الجديّة التي تعاني منها البلاد، وهي صعوبات مرشحة للاستمرار، تهرب الدولة من معالجتها بالتمادي في الاقتراض، ما نجم عنه ارتفاع مقلق في الدّين العام، دون حسبان عواقب ذلك المستقبلية على الاقتصاد الوطني والاستقرار المالي في البلاد، وكذلك على أوضاع الشعب المعيشية.

التقدمي

في مقر «التقدمي» على مدار أسبوع

معرض «أحمد الشملان .. صور من السيرة»

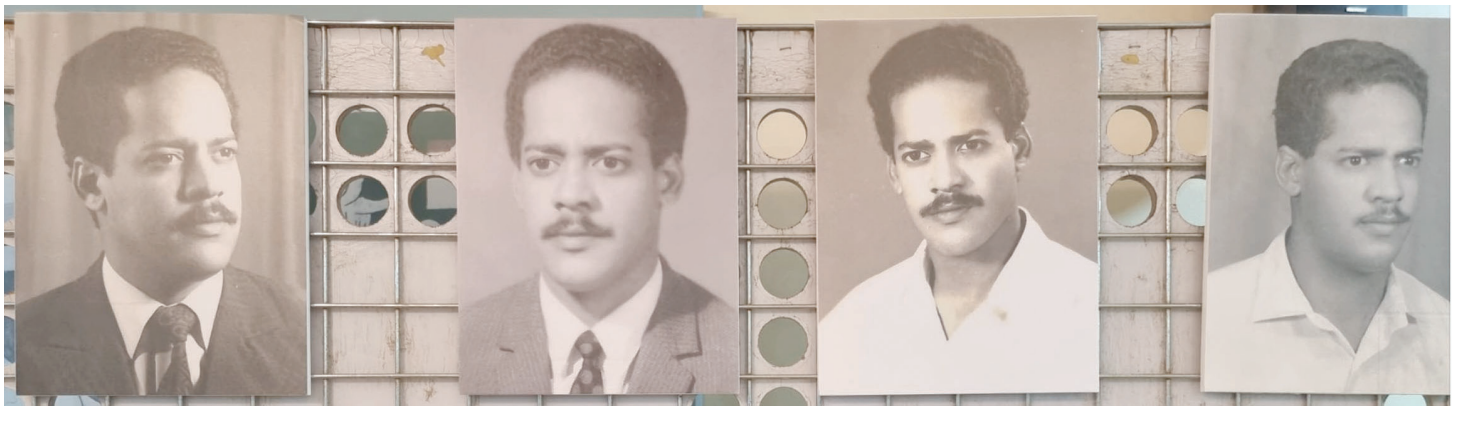

في إطار فعاليات تأبين الرئيس الفخري للمنبر التقدمي الرفيق المناضل أحمد الشملان، أقام التقدمي في مقره، معرض «أحمد الشملان .. صورة من السيرة» في الفترة من 3 – 10 سبتمبر الماضي، وزارته شخصيات وطنية ونشطاء سياسيون ومهتمون بسيرة الرفيق الراحل، حيث اطلعوا، من خلال عشرات الصور المعروضة فيه، على محطات من حياته العائلية والاجتماعية والكفاحية، منذ صباه مروراً بشبابه وانخراطه في العمل النضالي، وما جمعه من ذكريات مع شخصيات وطنية في البحرين وخارجها، فضلاً عن مشاركاته في فعاليات مؤسسات المجتمع المدني والقوى الوطنية، خاصة أنشطة المنبر التقدمي المختلفة منذ تأسيسه.

يشار إلى أن جانباً من صور المعرض عرضت في حفل تأبين الفقيد في مقر نادي العروبة في مساء الثلاثين من شهر أغسطس الماضي، حظت باهتمام وإعجاب الحضور الحاشد.

تخليداً لذكرى هاشم العلوي

التقدمي يدعو لتبييض السجون وإلغاء العزل السياسي

أكّد المنبر التقدمي على وقوفه مع المطالب المشروعة التي من أجلها أضرب المعتقلون والسجناء السياسيون عن الطعام، مطالباً بتبييض السجون وبإلغاء تدابير العزل السياسي وتمكين كل المواطنين، وبدون استثناء، من ممارسة حقوقهم السياسية والدستورية، وإعادة النظر في العديد من القوانين والتشريعات المعيقة لحرية الرأي والتعبير والتنظيم، ومنح صلاحيات أوسع لمجلس النواب ليكون قادراً على أداء الدور المناط به سياسياً ودستورياً في الوقوف مع مطالب الشعب، والتصدي للفساد الإداري والمالي ومحاسبة الفاسدين وسارقي المال العام.

جاء ذلك في بيان للتقدمي بمناسبة الذكرى السابعة والثلاثين لاستشهاد الرفيق المناضل الدكتور هاشم اسماعيل العلوي في أقبية التعذيب، بعد حملة اعتقالات واسعة طالت العديد من كوادر ومناضلي جبهة التحرير الوطني البحرانية في صيف عام 1986، رداً على تصاعد نضال الجبهة من أجل الديمقراطية والحريات العامة واحترام حقوق الإنسان في البحرين، وإلغاء قانون، ومحكمة، تدابير أمن الدولة وتفعيل مواد الدستور، والمطالبة بسحب القواعد العسكرية الأجنبية، وانتهاج سياسة خارجية مستقلة بعيدة عن التجاذبات والأحلاف العسكرية.

وحيا التقدمي ذكرى استشهاد الرفيق البطل، مشدداً على المبادئ والقيم التي ضحى من أجلها هو وكل رفاقه على مدار عقود، واعداً بالاستمرار في السير على ذات الطريق، والتمسك بحقوق الشعب ومطالبه المشروعة، وصولاً لما يناضل إليه التقدمي من تطلعات في الحرية والديمقراطية والعدالة، وضد الاستغلال والفساد ومصادرة الحريات العامة.

زيارة لقبر الشهيد

وجرياً على تقليد سنوي متبع قام وفد من المنبر التقدمي برئاسة نائب الأمين العام للشؤون السياسية

الرفيق فاضل الحليبي بزيارة قبر الشهيد، في ذكرى يوم استشهاده، ووضع إكليل من الزهور على القبر، وأكدّ الحليبي على المبادىء والقيم التي ضحى في سبيلها الرفيق الشهيد هاشم وكل رفاقنا على مدار عقود ، معاهداً الشهيد بالسير على هذا الطريق من أجل تحقيق المطالب العادلة المشروعة لشعبنا، وبلوغ ما ناضل تنظيمنا وحركتنا الوطنية من أجله.

فضفضة

إعادة هيكلة!

عيسى الدرازي

في بيانها على خلفية الاستغناء عن مجموعة من المواطنين العاملين في الشركة الذي قضى بعضهم سنوات طويلة في العمل فيها، قاربت ثلاثة عقود، قالت شركة مجموعة طيران الخليج بأنها قامت بإعادة هيكلة للعمليات في المجموعة وفق «دراسة متأنية ومستفيضة»، واضعة نحو 35 أسرة بحرينية في مهب رياح العوز والعطالة.

واللافت في ذات البيان أنه أشار إلى أن الشركة أكّدت التزامها بقانون العمل وتنفيذ ما يقتضيه من حق تعويض للموظفين. وإن كان ذلك نظرياً صحيحاً، لأن شركة بحجم طيران الخليج تضم طاقم فريق كامل من القانونيين الذين يهندسون الخطوات والقرارات بالميليمتر درءاً لأحكام قضائية قد تصب في غير مجرى الشركة، إلا أن الحماية القانونية للموظفين والتي من المفترض أن تكون روح قانون العمل وجوهره الأصيل، لم يتم الالتزام بها، وقفزت الشركة بذلك إلى العلاج بالكي بدلاً من معالجة المشكلة خطوة بخطوة.

رداً على فصل موظفي طيران الخليج، أصدر التقدمي عدة بيانات، أحد تلك البيانات أكد على نقطة في غاية الأهمية تتعلق بمسؤولية مجلس النواب وصلاحياته المسلوبة التي لا تستطيع مجابهة شركة حكومية وغير حكومية في آن واحد، فبسبب تحصين شركة طيران الخليج وغيرها من الشركات التي تتحمل الحكومة الجزء الأكبر من أسهمها وإدراجها ضمن الحاضنة الكبرى "ممتلكات القابضة" قطعت كل السبل للمجلس المنتخب من الرقابة والمساءلة. وكانت النتيجة أن ما جرى تسبب بامتعاض غالبية أعضاء المجلس باختلاف توجهاتهم السياسية.

وما إصرار التقدمي على تكرار المطالبة بتوسيع صلاحية المجلس النيابي في الرقابة على الوزراء والاستجواب والمساءلة ومناقشتهم وتوقيع العقوبة حماية للمواطنين من تعسف السلطة التنفيذية في توظيف الصلاحيات المتاحة لها، ما هو إلا نتيجة لمثل هذه الممارسات التي باتت تتكرر بصورة أو أخرى، واضعة المجلس المنتخب بين سندان الصلاحيات القاصرة وبين مطرقة الشارع التي لا ترحم وتوجه اللوم والإتهام للمجلس بالتقصير في أداه مهامه.

إزدياد اللغط في الشارع عن الحاجة لوجود مجلس نيابي منتخب بالصورة التي أوصلته السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية نفسها للأسف، لا يمكن أن يؤدي لنتائج إيجابية سياسياً على المنظور البعيد، فحاجة السلطة التنفيذية لسلطة تشريعية موازية تُقوّم العمل وتعيد المسار هو من أبجديات العمل السياسي في أي نظام ينشد التطور والإزدهار.

التقـدمـي يتضـامـن مـع الشعبـين المغـربي والليبـي

أعرب المكتب السياسي للمنبر التقدمي عن تضامنه مع الشعب المغربي جراء الزلزال المدمر الذي ضرب عدة مدن وقرى مغربية، وأبدى المكتب السياسي تضامنه على الشعب المغربي في هذه الظروف الصعبة، داعياً المجتمع الدولي لمد يد العون وتوظيف كل الامكانيات المادية والفنية والبشرية لمساندة الشعب المغربي حتى انتهاء تبعات هذه الكارثة البشعة.

وقدم المكتب السياسي التعازي والمواساة للشعب المغربي ولعوائل الضحايا متمنياً الشفاء العاجل للمصابين.

من جانب آخر، أعرب التقدمي عن تضامنه مع الشعب الليبي إثر الاعصار التي تعرضت له مدينة درنة شرقي البلاد مما أدى للسيول والفيضانات أغرقت معظم أجزاء تلك المدينة وذهب آلاف الضحايا جراء ذلك حيث قتل أكثر من ألفي شخص من سكان المدينة وفقد آلاف آخرين، وألحق أضراراً بعدد من الطرق والمباني والممتلكات.

وتعاطف التقدمي مع الضحايا وأهاليهم وذويهم في هذه اللحظات الصعبة التي يكابدها الشعب الليبي، مناشداً دول العالم لمد العون لتعود الظروف إلى مسارها الطبيعي، وقدم التقدمي التعازي لأسر وأهالي الضحايا ولكافة الشعب الليبي الشقيق، متمنياً للمصابين بالصحة والسلامة وللمفقودين بالعودة إلى أهاليهم وذويهم سالمين.

تعـزيـة لعـائلـة الـرفيـق منير حمـارنـة

قام وفد من قيادة المنبر التقدمي، برئاسة الرفيقة فهيمة درويش نائب الأمين العام للشؤون التنظيمية، بتقديم واجب العزاء في رحيل الأمين العام الأسبق للحزب الشيوعي الأردني الشقيق، الرفيق الدكتور منير حمارنة، حيث زار الوفد منزل الفقيد في العاصمة الاردنية، عمّان، وسلم زوجته رسالة تعزية من الأمين العام للتقدمي الرفيق عادل متروك، وعبّر الوفد عن صادق المواساة لجميع أفراد العائلة ولكل رفاق الفقيد، مشيداً بسيرته الكفاحية الحافلة بالتضحيات والعطاء النضالي.

وضمّ الوفد الرفيقات: بدرية المرزوق عضو المكتب السياسي، النائب إيمان شويطر عضو اللجنة والمركزية وكتلة «تقدّم» النيابية، نعيمة مرهون، والرفيق المحامي حسن إسماعيل.

محذراً من النتائج السلبية

التقدمي يستنكر فصل موظفي طيران الخليج ويعتبره تجاوزاً للقانون

استنكر المنبر التقدمي ما أقدمت عليه إدارة شركة طيران الخليج بفصل عدد من العاملين البحرينيين من الشركة، معتبراً بأن هذه الخطوة ستكون لها نتائج سلبية ليس على العاملين المفصولين بل ستتعداه لجميع العاملين البحرينيين في الشركة، لافتاً إلى أن مثل هذه الاجراءات دليل على انعدام الأمن الوظيفي للمواطنين في الشركة خاصة في ظل ما يشغله أعداد كبيرة من العمالة الوافدة فيها.

وشدد التقدمي على أن الشركة تتجاوز بشكل واضح قانون العمل في مادته (110) التي تلزمها بأن يتم مراعاة عدم إنهاء عقد العامل البحريني الذي يتمتع بنفس كفاءة وخبرة العامل الأجنبي الذي يعمل معه في المنشأة وهذا في حالة الإغلاق أو تقليص المنشأة، فقط، وهو ما يتنافى مع ما ساقته الشركة من تبريرات واهية متذرعة بالتزامها الكامل بقانون العمل الذي يلزم الشركة تعويض أي موظفين يتم فصلهم أو إلغاء وظائفهم ودفع مستحقاتهم حسب الأنظمة والقوانين، وهذا تبرير مجتزأ للقانون.

وشدد التقدمي على أن: «المسؤولية المشتركة للسلطتين التنفيذية والتشريعية بتنفيذ ما نص عليه برنامج عمل الحكومة، منطلق من القاعدة الدستورية في كفالة الحكومة للمواطنين بالحق في العمل وليس للوافدين كما تعمل العديد من الشركات والمؤسسات، والمؤسف أن تتقدمهم شركات حكومية ذات رأس مال عام من أولى مهماتها الواجبة المساهمة في تأمن الاستقرار والأمن المجتمعي الذي لن يتحقق مع ما نشهده من عمليات فصل وانتهاك لحقوق المواطنين في عمل لائق يؤمن لهم الحياة الكريمة».

ولفت التقدمي إلى: «أهمية توسيع صلاحية المجلس النيابي كي يتمكن النواب كممثلي للمواطنين البحرينيين، التصدي لمثل هذه الإجراءات واتخاذ التدابير اللازمة لحماية ذوي الدخل المحدود من سلطة أرباب العمل، وذلك بتوسيع صلاحية المجلس النيابي في الرقابة على الوزراء والاستجواب والمسائلة ومناقشتهم وتوقيع العقوبة حماية للمواطنين من تعسف السلطة التنفيذية في توظيف الصلاحيات المتاحة لها»، داعيا جميع المعنيين وبخاصة من هم في موقع تمثيل للعمال لتحمل مسؤولياتهم في هذا الشأن».

وأكد المنبر التقدمي بأن: «شركة طيران الخليج باعتبارها الناقلة الوطنية وجل رأسمالها من الأموال العامة وهذا ما يحملها مباشرة بالإضافة إلى مسؤوليتها الاجتماعية كمؤسسة وطنية للمجتمع عليها حقوق ومنها المساهمة في توفير فرص العمل للمواطنين وتأمين استدامتها والالتزام بالخطط الوطنية وبرامج وخطط الحكومة في البحرنة وقبلها ما نص عليه برنامج عمل الحكومة لسنوات 2023-2026 في محور التعافي الاقتصادي وبعنوان (خلق فرص عمل واعدة للمواطنين) تلتزم الحكومة فيه على: العمل على تنمية القطاعات الواعدة لخلق فرص التوظيف النوعية ذات الأجر المجزي للمواطنين بالشراكة مع القطاع الخاص، وطرح برامج ومبادرات لرفع الإنتاجية وتزويد المواطنين بالمهارات اللازمة بما يتوافق مع متطلبات سوق العمل بهدف رفع أجور المواطنين، وتعزيز فرص توظيفهم كخيار أول وأساسي بالتعاون مع القطاع الخاص».

الجمعيات السياسية تطالب
طيران الخليج بالتراجع عن فصل الموظفين البحرينيين

استنكرت جمعيات سياسية قرار الفصل التعسفي الذي أقدمت عليه شركة طيران الخليج، ومطالبة إياها بالتراجع عن قرار الفصل فوراً.

وقالت جمعيات (المنبر التقدمي، التجمع القومي الديمقراطي، التجمع الوطني الديمقراطي الوحدوي، المنبر الوطني الإسلامي، الصف الإسلامي، التجمع الوطني الدستوري، الوسط العربي الإسلامي) بأن: « الدولة قامت بصرف مئات الملايين من الميزانية العامة على دعم هذه الشركة وتمكينها من مواصلة عملياتها، وهي أموال كان أحق أن تُصرف على دعم معيشة المواطنين».

وأوضح بيان الجمعيات بأنه: « في الوقت الذي تعلن فيه الحكومة عن برامجها ومبادراتها للتوظيف وأحقية المواطن البحريني في الحصول على وظائف لمكافحة ظاهرة البطالة في المجتمع، والتي باتت تؤرق عوائل كثيرة حيث تشاهد أبناءها عاطلين عن العمل لسنوات طويلة، تفاجئنا طيران الخليج، وهي الناقلة الوطنية، بفصل 35 من موظفيها البحرينيين بطريقة مهينة، حيث بلغوا بقرار الفصل في نفس يوم فصلهم، ومنهم من خدم أكثر من ثلاثين عاماً في الشركة ودون التشاور مع النقابة العمالية للشركة، وكل ذلك بحجة إعادة الهيكلة، مع التلويح بأن عمليات فصل الموظفين البحرينيين سوف تستمر».

وحيت الجمعيات السياسية مواقف كافة النواب الذين رفضوا واستنكروا هذه الخطوة، فإنها تطالب مجلس النواب باتخاذ موقف جماعي يطالب بإقالة المسئولين عن الشركة والتحقيق معهم في كافة الاجراءات التعسفية المرفوضة التي تقوم بها الشركة بحق موظفيها البحرينيين، وأن تتصدى لكافة قضايا الفساد التي تحوم حول الشركة.

وثمنت الجمعيات السياسية كل الجهود الخيرة التي تُبذل في سبيل إعادة النظر في قرار الفصل فإنها في ذات الوقت طالبت الدولة بصفتها ضامن للاستقرار والأمن المعيشي والحفاظ على أرزاق المواطنين، أن تجد الحلول البديلة التي لا تنال من لقمتهم ولا تعمق الهوة بينها وبين الشارع وأن تستجيب لمعاناة الناس ومناشداتهم في حياة كريمة.

داعية الدولة لترجمة خطابها المعلن لبحرنة الوظائف ومعالجة مشكلة العاطلين، في خطوات عملية يستشعرها المواطن، ولعل قرار وقف هذه الإجراءات المرفوضة والمستنكرة شعبياً أحد تلك الخطوات التي ينتظرها المواطن ويستشعر من خلالها ترجمة حقيقية.

البحرين تعتزم زيادة رسوم العمالة الوافدة لدعم اقتصادها

تعتزم الحكومة البحرينية اتخاذ مزيد من الإجراءات التي تصب في تعزيز الاستقرار المالي والتنمية الاقتصادية من أجل مواصلة خلق الفرص النوعية أمام المواطنين.

وبلغ العجز الفعلي في ميزانية مملكة البحرين في النصف الأول من 2023 نحو 381 مليون دينار بحريني (1.01 مليار دولار)، بحسب ما طالعته «العربية.نت»، على وكالة الأنباء الرسمية.

وشملت الإجراءات التي تعتزم الحكومة إقرارها رفع رسوم العمل على الموظفين غير البحرينيين بما يسهم في تعزيز جعل المواطن الخيار الأفضل للتوظيف.

يشار إلى أن بيانات هيئة تنظيم سوق العمل بالبحرين، أظهرت أن إجمالي العمالة بنهاية الربع الثاني من العام 2023 يصل إلى 770.129 عاملاً.

وبحسب البيانات، بلغ إجمالي العمالة غير البحرينية بنهاية الربع الثاني من هذا العام 609.028 عاملاً بالمقارنة مع 563.332 عاملاً في الربع الثاني من العام 2022 مرتفعاً بنسبة سنوية وصلت إلى 8.1٪.

وأشارت البيانات، إلى أن إجمالي العمالة البحرينية بنهاية الربع الثاني وصل إلى 161.101 عامل بحريني منخفضاً بنسبة سنوية قدرها -0.2٪ بالمقارنة مع 161.430 عاملاً في الربع الثاني من العام 2022 بينما سجل انخفاضاً بالمقارنة مع 161.848 عاملاً في الربع السابق.

«العربية نت»: 20 سبتمبر 2023

وزاري «عمل التعاون» يناقش احتساب مواطن الخليجي ضمن نسب التوطين المحلية

ناقشت لجنة وزراء العمل بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية في اجتماعها الدوري التاسع احتساب مواطني دول مجلس التعاون ضمن نسب التوطين في دول المجلس. وكان الاجتماعي الوزاري الخليجي قد انعقد في العاصمة العمانية، مسقط، في 21 سبتمبر 2023، كما ناقشت اللجنة الوزارية استراتيجية العمل الخليجي المشترك في مجال العمل والقوى العاملة، بالإضافة إلى تطوير نظم مكافأة نهاية الخدمة للعمالة الوافدة في دول مجلس التعاون.

جانب من الاجتماع

«طيران الخليج» تستغني عن 35 من موظّفيها

استغنت شركة طيران الخليج عن عدد من موظفيها، أمس، وذلك ضمن خطة لإعادة هيكلة الشركة.

في السياق نفسه، أصدر 25 نائبًا بيانا استنكروا فيه قيام شركة طيران الخليج باستخدام الفصل التعسفي في حق عدد من المواطنين. وأكد النواب أن ما قامت به الشركة لا ينسجم مع توجهات الحكومة الموقرة، في اتخاذ الخطوات التي تكفل استقرار الاوضاع الوظيفية للمواطنين واستقرار أسرهم.

وقال موظفون تم الاستغناء عن خدماتهم إنهم تفاجأوا أمس بدخول موظفين من إدارة الموارد البشرية بمعية رجل أمن من الشركة، وتسليمهم إفادات تخصّ إنهاء خدماتهم، والطلب منهم تسليم عهدتهم فورًا ومغادرة الشركة.

وعبّر الموظفون عن انزعاجهم من الطريقة التي تم بها تسريحهم من الشركة، معتبرين أنها طريقة مهينة ولا تليق بتاريخ عطائهم في الشركة، إذ إن خدمات بعضهم تجاوزت الـ30 عامًا.

وأفادت مصادر نقابية أن عدد من تم الاستغناء عن خدماتهم بلغ 35 موظفًا، وأن خطة إعادة الهيكلة تقضي بالاستغناء عن عدد إضافي من الموظفين.

من جانبها، دعت النقابة الوطنية لعمال طيران الخليج الشركة إلى ضرورة التفاوض معها حول توجهاتها بإعادة الهيكلة؛ للوصول إلى حلول ترضي الأطراف كافة.

وقال رئيس النقابة يوسف أحمد إن إدارة الشركة تحاول معالجة أخطاء إدارات سابقة بالتضحية بالعمال، دون اكتراث لأثر ذلك على مستقبل العمال وعوائلهم.

من جانبها، أصدرت نقابة عمال طيران الخليج تصريحًا، عبّرت فيه عن استنكارها لقرار تسريح عدد من العمال دون الرجوع إلى ممثلي العمال.

وأعربت عن استغرابها من تقليص العمالة الوطنية في الشركة رغم التصريحات المتكررة بالتوسع، والأغرب أن يكون التسريح إجباريًا ودون إعطاء فرصة للتدوير الوظيفي بالشركة.

من جانبه، قال يعقوب يوسف محمد رئيس الاتحاد الحر لنقابات عمال البحرين إن الاتحاد الحر يتابع بقلق شديد توجه إدارة شركة طيران الخليج في تنفيذ خطتها لتسريح العمالة بالشركة تحت مسمى ببرنامج «إعادة الهيكلة»، والتي ستطال العديد من القوى العاملة في الشركة ممّن لهم السبق في تأسيس هذه الشركة الوطنية.

«الأيام»: 7 سبتمبر 2023

كاريكاتير
خالد الهاشمي

نقلاً عن حساب الفنان على «انستجرام»

اليوم الدولي للمساواة في الأجر: لتقليص الفجوة بين الجنسين

تحتفل الأمم المتحدة باليوم الدولي للمساواة في الأجر، والذي يوافق 18 سبتمبر من كل عام، ويمثل هذا اليوم الجهود طويلة الأمد نحو تحقيق المساواة في الأجر عن العمل المتساوي القيمة، كما أنه يبني على التزام الأمم المتحدة بحقوق الإنسان وضد جميع أشكال التمييز، بما في ذلك التمييز ضد النساء والفتيات.

ووفق مركز إعلام الأمم المتحدة، واجه النساء في قطاع الصحة والرعاية فجوة أكبر في الأجور بين الجنسين مقارنة بالقطاعات الاقتصادية الأخرى، حيث يقل دخلهن في المتوسط بنسبة 24 ٪ عن أقرانهن من الرجال.

وذكرت الأمم المتحدة أنه في جميع المناطق، تتقاضى النساء أجورًا أقل من الرجال، وتقدر فجوة الأجور بين الجنسين بنسبة تقترب من 20 في المائة على مستوى العالم. ولا تزال المساواة بين الجنسين وتمكين النساء والفتيات يتراجعان بسبب استمرار علاقات القوة التاريخية والهيكلية غير المتكافئة بين النساء والرجال، والفقر وعدم المساواة والحرمان في الوصول إلى الموارد والفرص التي تحد من قدرات النساء والفتيات، وكان التقدم في تضييق هذه الفجوة بطيئًا، في حين تم تأييد المساواة في الأجور بين الرجال والنساء على نطاق واسع، إلا أن تطبيقها في الممارسة العملية كان صعبًا.

وأكدت الأمم المتحدة أنه من أجل ضمان عدم إهمال أي شخص، تتناول أهداف التنمية المستدامة الحاجة إلى تحقيق المساواة بين الجنسين وتمكين جميع النساء والفتيات، وعلاوة على ذلك، تعزز أهداف التنمية المستدامة العمل اللائق والنمو الاقتصادي من خلال البحث عن العمالة الكاملة والمنتجة والعمل اللائق لجميع النساء والرجال، بما في ذلك الشباب والأشخاص ذوي الإعاقة، والأجر المتساوي لقاء العمل المتساوي القيمة.

وتدعو الأمم المتحدة، بما في ذلك هيئة الأمم المتحدة للمرأة ومنظمة العمل الدولية، الدول الأعضاء والمجتمع المدني والمنظمات النسائية والمجتمعية والجماعات النسوية، وكذلك منظمات الأعمال والعمال وأصحاب العمل، إلى تعزيز المساواة في الأجر مقابل العمل ذات قيمة متساوية والتمكين الاقتصادي للنساء والفتيات.

«اليوم السابع»: 18 سبتمبر 2023

حول عجز الموازنة في النصف الأول من ٢٠٢٣ ..

تســـاؤلات مشـــروعـــة

أثار الإعلان عن وجود عجز في الموازنة العامة للدولة، كمحصلة أولية للأداء الاقتصادي الحكومي خلال النصف الأول من عام ٢٠٢٣، تساؤلات ولغطاً كبيراً في أوساط مختلفة من المشتغلين والمعنيين والمهتمين والمتابعين للشأن الاقتصادي البحريني. الإعلان "الصاعق"، جاء في أعقاب اجتماع مشترك ضمّ الحكومة ومجلسي النواب والشورى لاستعراض نتائج الإقفال المحاسبي نصف السنوي للوزارات والجهات الحكومية للفترة المنتهية في ٣٠ يونيو ٢٠٢٣.
الأرقام، وكما أوردتها وكالة أنباء البحرين في تغطيتها لنتيجة الاجتماع المذكور للسلطتين التنفيذية والتشريعية، كانت على النحو التالي:

د. محمد الصياد

بلغ إجمالي الإيرادات العامة الفعلية المحصلة في الفترة من 1 يناير حتى 30 يونيو 2023، 1.441 مليار دينار بحريني، بينما بلغ اجمالي المصروفات الفعلية خلال نفس الفترة 1.823 مليار دينار بحريني.

ما يعني وجود عجز في موازنة الشهور الستة الأولى من السنة المالية 2023، قدره 382 مليون دينار بحريني (وليس 381 مليون دينار، كما نُشر).

طريقة خاطئة لعرض المعلومات

ونرجح أن طريقة نشر وعرض المعلومة بطريقة خاطئة وغير مبرّرة على الإطلاق هو الذي فغر فاه البعض للشكوى وإبداء القلق على مسار السياسة المالية وعلى دالّة الانفاق تحديداً، خصوصا وإن هذا العجز، الذي هو بالضرورة محصلة للإدارة المالية الكلية، على صعيدها الإنفاقي، لا يتسق مع هدف تحقيق برنامج التوازن المالي الذي أُطلق في عام 2018. فالإشارة في متن الخبر الذي تناقلته وكالات الأنباء، لاسيما رويترز البريطانية، والمواقع الالكترونية، إلى الدولار الأمريكي (وضع تقدير للعجز بالدولار الأمريكي بين قوسين – حوالي مليار دولار)، هو الذي أثار التساؤل والقلق. كان الحري بناقل الخبر أن يكتفي بالإشارة إلى العجز بالدينار البحريني، على أساس أن الموازنة العامة للدولة مقوّمة بالدينار البحريني وليس بالدولار الأمريكي. وهذا خطأ منهجي رياضي لا يستقيم فيه القياس النموذجي لنسبة العجز في الموازنة. مع جدارة الملاحظة هنا، بأن العجز الفعلي المتحقق في النصف الأول من موازنة 2023، أخفض مما كان متوقعاً نتيجة لخفض المصروفات خلال نفس الفترة بنسبة 2٪، بحسب البيان الصادر عن الاجتماع المشترك للسلطتين التنفيذية والتشريعية لاستعراض نتائج الاقفال المالي نصف السنوي لموازنة 2023.

لكن هذا لا يقدح في وجاهة الأسئلة المثارة بشأن هذا العجز الذي يبقى كبيراً جداً (382 مليون دينار)، اعتباراً بنسبته لاجمالي المصروفات الفعلية في الميزانية التي يُفترض – محاسبياً – موازنتها بإجمالي الإيرادات، وبالفترة الزمنية القصيرة التي سُجِّل فيها (6 أشهر فقط). لذا، سوف تقودنا هذه المحصلة الى تسجيل الملاحظات التالية:

أولاً: أوجه الاستغراب

يبلغ اجمالي الإيرادات التقديرية في موازنة السنتين الماليتين 2023 و2024، 6،572،760 مليار دينار، بينما يبلغ اجمالي المصروفات 7،254،214 مليار دينار، أي أن العجز الإجمالي للسنتين الماليتين المذكورتين يبلغ 681،454 مليون دينار. وبما أن ما سُجّل من عجز فعلي في الشهور الستة الأولى فقط من العام المالي 2023، قد بلغ 382 مليون دينار، فهذا يعني أن الموازنة استهلكت في ربع مدة السنتين الماليتين 2023 و2024، أكثر من نصف العجز المفترض (56٪) – تقديراً – الوصول اليه في نهاية عام 2024. وإذا ما تواصل سيناريو الإنفاق مقابل سيناريو الإيرادات الفعلية في الشهور الـ 18 القادمة، بنفس الوتيرة، فسنكون أمام عجز تراكمي مهول في نهاية السنة المالية 2024. ما لم تحدث قفزة ملموسة في الإيرادات، خصوصا إيرادات النفط التي يُعوّل عليها على ما وضح من خلاصة الاجتماع المذكور في إحداث الفارق.

في تبريرات هذا العجز – وهذا أيضا موضع تساؤل استغرابي – قيل إن انخفاض أسعار النفط كان له تأثير واضح في انخفاض الإيرادات العامة. وهذا يصعب فهمه، ذلك لأن موازنة السنتين الماليتين 2023–2024، قد وُضعت على أساس سعر قدره 60 دولاراً للبرميل، بينما بلغ متوسط سعر خام برنت (الذي لا يفترق كثيراً عن خام العربي الوسيط سوى بحوالي دولار واحد أو أكثر قليلا)، للشهور الستة الأولى (حتى نهاية يونيو) من عام 2023 الجاري، 79.75 (حوالي 80) دولارا1. وبحسب توقعات إدارة معلومات الطاقة الأمريكية (EIA)، فإن متوسط سعر برميل النفط من خام برنت في النصف الثاني من عام 2023، سيبلغ حوالي 85 دولارا2. ما يعني أن إيرادات الموازنة من مبيعات النفط تتجاوز الـ 60 دولارا المقوّمة بها إيرادات الموازنة، في الشهور الستة المنصرمة من عام 2023، وفي النصف الثاني من نفس العام، بمتوسط وفر قدره حوالي 23 دولاراً لكل برميل تم وسيتم تصديره.

المشكلة، أن العجز النصف سنوي في الميزانية (382 مليون دينارا)، قد ابتلع 73.5٪ من إجمالي العجز المقدّر في الميزانية لكامل سنة 2023، وذلك انطلاقاً منأن اجمالي الإيرادات المقدرة في ميزانية 2023، يبلغ 3،103،386 مليار دينار، بينما تبلغ المصروفات المقدرة في السنة المالية (2023)، 3،623،429 مليار دينار، بعجز اجمالي تقديري لكامل سنة 2023، يبلغ 520،043 مليون دينار. ما يعني أن العجز الفعلي في الميزانية لكامل سنة 2023، سوف يتخطى بكثير العجز المقدر في الميزانية من قبل وزارة المالية. وهذا ما يفسر طلب الحكومة في الاجتماع المشترك سالف الذكر، رفع سقف الدين العام بمقدار مليار دينار بحريني "لتغطية الاحتياجات التمويلية خلال فترة تنفيذ الميزانية العامة للعامين 2023–2024"، كما جاء في تبرير الطلب.

ثانياً: أسباب العجز وأفق برنامج التوازن المالي

مع كامل التحفظ على حقيقة وطبيعة عمل وكالات التصنيف الإئتماني الدولية (وهي ثلاث وكالات أمريكية ★ستاندرد أند بورز، موديز، وفيتش تُقرر، بتسييس واضح، صحة أو عدم صحة الموقف المالي للدول والشركات في كافة بلدان العالم)؛ لكن صلة تقرير "فيتش" بالموضوع المثار، تقتضي العرض بمحامله. ففي شهر يوليو الماضي، أصدرت وكالة التصنيف الأمريكية "فيتش"، تقريراً تقييميا للموقف المالي لمملكة البحرين. وقد جاء في التقرير الذي ثبّتت فيه الوكالة التصنيف الائتماني لمصدر العملة الأجنبية طويل الأجل للبحرين (Long–Term Foreign–Currency Issuer Default Rating – IDR) عند "B+"، مع نظرة مستقبلية مستقرة – أن ضعف المالية العامة، والاعتماد المالي الكبير على عائدات النفط، وانخفاض مستويات احتياطيات العملات الأجنبية، تؤثر سلباً على تصنيفات البحرين الإئتمانية. لكن التقرير الذي اعتبر الاعتماد المالي الكبير على عائدات النفط، إحدى نقاط الضعف في الموقف المالي العام للبحرين، اعتبر في الآن نفسه، الاعتماد على الدعم المالي القوي الذي تحظى به البحرين من شركائها في مجلس التعاون، عنصر قوة في اقتصادها3.

أيضا، مع التحفظ الاقتصادي المنهجي على نقاط الضعف التي تعتور الاقتصاد البحريني التي شخصها تقرير "فيتش"، نجد من المناسب الإحالة في هذا المقام – تعليقاً على نقطة انخفاض مستويات احتياطيات العملات الأجنبية، كنقطة ضعف وردت في تقرير "فيتش"، إلى ما كان أدلى به يوم الخميس 17 آب/أغسطس 2023 (أي بعد شهر من تقرير فيتش)، سايمون ويليامز، كبير الاقتصاديين في بنك HSBC لأوروبا الوسطى والشرقية والشرق الأوسط وأفريقيا، في مذكرة بحثية، نقلتها رويترز. فقد أكّد بأن أصول البنك المركزي البحريني من العملات الأجنبية ارتفعت بنحو 800 مليون دولار في يونيو 2023 مقارنة بشهر مايو 2023، لتتعافى أكثر من مستوياتها المنخفضة الناتجة عن الجائحة، لكنها لا تزال متواضعة بالنسبة لاقتصاد قائم على النفط وعملته مربوطة بالدولار". وهذه هي الزيادة الثالثة على التوالي على أساس شهري في الأصول بالعملة الأجنبية التي بلغت (حتى نهاية شهر يونيو 2023)، 1.95 مليار دينار (5.17 مليار دولار). ما يعني أن الاحتياطيات ارتفعت بنسبة 50٪ في غضون عام إلى أعلى مستوى لها منذ الربع الأخير من عام 2015، لتواصل التعافي من أدنى مستوياتها في أعقاب جائحة كوفيد–19، عندما انخفضت إلى 770 مليون دولار فقط4. لكن بيانات مصرف البحرين المركزي لشهر أغسطس 2023، تشير الى انخفاض احتياطيات النقد الأجنبي في البحرين إلى مليار و865 مليون دينار بحريني في يوليو 2023، من مليار وحوالي 950 مليون دينار في يونيو من العام نفسه5.

أصبحت السلطتان التنفيذية والتشريعية شريكتين، برسم الأمر الواقع، في الحالة المالية التي تشبه الدوامة. فعوضا عن تقليص العجز لتحقيق التوازن المالي الموعود، تراهما يعملان على زيادة الدين العام. التنفيذية تخفق في ضبط موازنتها فتطلب مزيداً من فتح سقف الدين، فتهرع التشريعية لإجابتها إلى طلبها.

تمّ إطلاق برنامج تحقيق التوازن المالي في عام 2018، على أن يتم بموجبه تحقيق هدف التوازن المالي (بين الإيرادات والمصروفات) بحلول عام 2022، من خلال تنفيذ 6 مبادرات هي:

تقليص المصروفات التشغيلية.

تنفيذ برنامج للتقاعد المبكر لموظفي الحكومة (لتحقيق هدف المبادرة الأولى).

زيادة كفاءة هيئة الكهرباء والماء لتحقيق التوازن بين إيراداتها ومصروفاتها.

تعزيز كفاء وعدالة الدعم الحكومي المباشر لمستحقيه من المواطنين.

تعزيز كفاءة الانفاق الحكومي.

تسهيل الإجراءات الحكومية وزيادة الإيرادات غير النفطية.

والمحصلة، أن المبادرات المذكورة لم تحقق المبتغى منها، فلم يتحقق بالتالي التوازن في عام 2020، ما أدى الى تمديد أمد البرنامج الى عام 2022، ليتم من جديد تمديد العمل بالبرنامج إلى عام 2024 نتيجة للإخفاق في تحقيقه في المواعيد المضروبة. ومن المشكوك فيه تحقيقه في 2024، في ظل سياسة الانفاق الحالية التي تتسم بكثير من الهدر غير المبرر على قطاعات وأنشطة مساهمتها في تخليق اجمالي الناتج المحلي، صفرية. فما من مبرر، على سبيل المثال لأن تكون مخصصات المشاريع الشبابية والرياضية 3 أضعاف تقريبا مخصصات التعليم والصحة والخدمات الاجتماعية جمعاء؟ فمثل هذه السياسة المالية (الخاصة بجانب المصروفات في الميزانية)، لا تنتمي إلى الدول الصاعدة بأفق مستقبلية واضحة. هذه سياسة مالية تنتمي إلى العمل الجاري للدورة الاقتصادية، أي تصريف الأعمال الاعتيادية الجارية "Business as usual – BAU"؛ أو عملية إعادة انتاج بسيطة، غير موسعة وغير تراكمية، لا علاقة لها بالمستقبل.

توجيه مخصصات التمويل

وقياسا على ما تقدم، يمكن تسجيل ملاحظة توجيه مخصصات التمويل الخليجي لمشاريع غير إنتاجية مثل إنشاء مدينة رياضية عوضا عن انفاقها على مشاريع إنتاجية. هنا يحضر أيضا عدم وجود مسوغ مقبول لإنشاء مبنى جديد للمجلس الوطني في ظل العجوزات والمديونية، ووجود مبنى فخيم ومناسب يفي بالغرض.

خلال عشرين سنة، من 2002 إلى 2022، تضاعف تقريبا إجمالي الناتج المحلي (من 6.1 مليار دينار إلى 13.3 مليار دينار)، أي أنه نما بمتوسط سنوي نسبته 5٪. فكيف لاقتصاد حافظ على هذه الوتيرة الجيدة جداً من النمو التي لا تحققها سوى الاقتصادات الصاعدة في آسيا، أن ينتهي به الأمر الى عجوزات في الموازنة تسببت في مراكمة دين عام يفوق اجمالي الناتج المحلي؟

كان القصد مما أُطلق عليه "ضبط مصروفات القوى العاملة من خلال إعادة هيكلة الوزارات والجهات الحكومية"، تقليص كادر العمل في الوزارات والهيئات الحكومية، أي تقليص حجم الجهاز الحكومي، وذلك من خلال برنامج محفزات التقاعد المبكر. وهذه إحدى المشورات التقليدية لوفود صندوق النقد التي تشدد دائما خلال لقاءاتها مع المسؤولين الحكوميين في الدول النامية، على سياسة التقشف وضبط الانفاق والتخلص من الدعومات وزيادة الجباية الضريبية بمزيد من الضرائب المباشرة وغير المباشرة، بما فيها الرسوم وضرائب القيمة المضافة. وقد صار معلوماً الآن لكل المترددين على الدوائر الحكومية لتخليص معاملاتهم، بمن فيهم المستثمرين الأجانب، تراجع أداء وفعالية الإدارة الحكومية، والذي تعود أسبابه جزئيا إلى التخلص من دفعة كبيرة من أفضل الاختصاصيين في جهاز الدولة "بفضل" تطبيقات نظام التقاعد المبكر.

الاحتياطيات الرسمية التي يحوزها مصرف البحرين المركزي والتي بلغت نهاية شهر يوليو 2023، (بحسب بيانات شهر أغسطس)، مليار و865 مليون دينار (حوالي 4.9 مليار دولار)، تغطي أكثر قليلا من ثلاثة أشهر من الواردات (متوسط قيمة واردات البحرين السلعية الفصلية، يبلغ حوالي 3.8 مليار دولار، بمعدل حوالي 1.2 مليار دولار شهريا). وهذا وضع غير مريح لميزان المدفوعات، بل هو ضاغط بشكل كبير على سعر صرف الدينار البحريني.

فأولاً، يجب أن لا يقل مستوى تغطية الواردات عن 6 أشهر في الظروف العالمية الراهنة. ثانيا، هذا الوضع المختل للميزان التجاري الناتج عن تخطي قيمة الواردات لقيمة الصادرات، كما هو الحال مثلا في الربع الأول من عام 2023، حيث بلغ العجز الإجمالي للميزان التجاري، 359 مليون دينار، أي حوالي 950 مليون دولار (بلغ اجمالي الصادرات 1.004 مليار دينار – حوالي 2.66 مليار دولار، فيما بلغ اجمالي قيمة الواردات، 1.363 مليار دينار – حوالي 3.6 مليار دولار)6؛ وكما هو الحال أيضا في شهر يوليو 2023، الذي بلغ فيه العجز 68 مليون دينار (حوالي 180 مليون دولار)7 – هو أحد أسباب عجز الموازنة المزمن ومراكمة الدين الحكومي. هذا الوضع يجب أن لا يستمر. لابد من غربلة الواردات، لاسيما الكمالية والوجاهية، بما في ذلك السيل المنهمر بلا ضابط لواردات السيارات التي تستنزف جزءاً كبيرا من رصيد العملات الصعبة، وذلك بدلاً من غربلة الدعم وغربلة القوى العاملة البحرينية العاملة في الوزارات والهيئات الحكومية. وهنا ننوه، بأن قواعد منظمة التجارة العالمية تسمح للدول التي تعاني من عجز مزمن في موازينها التجارية، باتخاذ ما يلزم من إجراءات لتصحيح أوضاعها المالية لوقف تدهور الثقة في عملتها الوطنية الناتجة عن انكشاف ميزان مدفوعاتها المتسبب فيه عجز ميزانها التجاري؛ بما يشمل ذلك السماح لها بفرض ضرائب على بعض الواردات السلعية لتقليصها وإنهاء العجز في ميزانها التجاري.

في الحقيقة، كثيرة هي الاختلالات والتشوهات الهيكلية في الاقتصاد البحريني، والتي يساهم كل منها في "تأمين استدامة" عجز الموازنة، والاضطرار لتغطيته بالاقتراض الداخلي (والخارجي أيضا، على اعتبار أن قدرة تأمين تدفق القروض من مصادر التمويل المحلية، هو الآخر محدود ومحكوم بطاقة الرسملة البنكية المحلية). من بين أوجه هذه الاختلالات، كمثال فقط، هيكل توزيع القروض البنكية المختل وذلك برسم التوزيع القطاعي السائد للقروض. حيث

يذهب أكثر من 50٪ للتمويل الشخصي الاستهلاكي، وحوالي 45٪ لقطاع الأعمال (وجلها تقريبا أعمال ليست ذات طابع انتاجي)، وحوالي 5٪ للحكومة (معظمه لتمويل بند المصروفات المتكررة في الميزانية). هذا الاختلال يشكل أحد أوجه الطابع الاستهلاكي (وليس الإنتاجي) لاقتصاد البحرين. وهذا يعكس نفسه بطبيعة الحال على محدودية قاعدة الشركات التي يمكن ادراجها في البورصة، وبالتالي على وضع البورصة البائس الذي لا يليق بوضع البحرين كمركز مالي إقليمي.

الهوامش:

(1) Statista Research Department، Brent crude oil price annually 1976–2023، 29 Aug، 2023، https://www.statista.com/statistics/262860/uk-brent-crude-oil-price-changes-since-1976/.

(2) Energy Information Administration، SHORT-TERM ENERGY OUTLOOK، Sep 12، 2023، https://www.eia.gov/outlooks/steo/.

(3) Fitch Ratings، Fitch Affirms Bahrain at 'B+'; Outlook Stable، 17July، 2023، https://www.fitchratings.com/research/sovereigns/fitch-affirms-bahrain-at-b-outlook-stable-17-07-2023.

(4) Yousef Saba، Reuters News، Bahrain hard currency assets rise 800mln in June، still modest$ - HSBC، August 17، 2023، https://www.zawya.com/en/economy/gcc/bahrain-hard-currency-assets-rise-800mln-in-june-still-modest-hsbc--k0gtp77w.

(5) Trading Economics، Bahrain Foreign Exchange Reserves، August 2023، https://tradingeconomics.com/bahrain/foreign-exchange-reserves.

(6) سكاي نيوز عربية- أبوظبي، 3.8 مليار دولار واردات البحرين السلعية في الربع الأول، 20 أبريل 2023، https://www.skynewsarabia.com/business/1614408-3.8-مليار-دولار-واردات-البحرين-السلعية-في-الربع-الأول.

(7) هيئة المعلومات والحكومة الألكترونية، 323 مليون دينار اجمالي الصادرات السلعية وطنية المنشأ خلال شهر يوليو من عام 2023، 24 أغسطس 2023، https://www.iga.gov.bh/article/bahrain-exports-for-products-of-national-origins-reached-bd323-million-during-july-2023.

بصراحة

مجلس النواب والصورة المقلوبة

فاضل الحليبي

بعد إجازة لأكثر من ثلاثة أشهر لمجلس النواب، يعود أعضاؤه من جديد إلى دور الانعقاد الثاني للفصل التشريعي السادس في أكتوبر، وقبل أن ندخل في الموضوع، نعود بكم إلى فترة بدء الحملات الانتخابية للمرشحين في أكتوبر من 2022، الذين تفاعل معهم قطاعات واسعة من الشعب، بالرغم من حملات المقاطعة والشعارات التي رُفِعَت من بعض القوى في تخوين وتسقيط المرشحين للانتخابات ووصفهم بالمطبعين مع الكيان الصهيوني، كان رأي فئات واسعة من المواطنين غير ذلك المسار أو الاتجاه، خيار المشاركة في الانتخابات النيابية، من أجل إيصال المرشحين الأفضل، والذين وثق المواطنون بأنهم سوف يسعَون للتغيير والإصلاح ويدافعون عن حقوقهم المكتسبة وعن مطالبهم المعيشية وبأن يكون مجلس النواب مغايراً لمجلس 2018 وحتى المجالس السابقة وكانت الآمال معقودة على الوجوه الجديدة التي دخلت المجلس ومعظمهم من الشباب بالإضافة إلى النواب أصحاب الخبرة والتجربة من الذين فازوا في الانتخابات السابقة.

من المعروف عن الشباب الحماس والعطاء والسعي للتعلم من التجارب والخبرات سواء كانت إيجابية أو سلبية لأعضاء المجلس من الدورات التشريعية السابقة، والعمل على تفعيل الآليات الدستورية فيه بالرغم من وجود النقص البائن في صلاحيات المجلس التشريعية والرقابية واللائحة الداخلية والتي تحدُّ من محاسبة المقصرين من المسؤولين، وكان المنتظر منهم إبراز دورهم التشريعي بصفتهم ممثلي الشعب، لا يمثلون أنفسهم ولا الحكومة، وأن يكونوا أعضاء فاعلين في المجلس.

النواب يسألون ويحاسبون السلطة التنفيذية عن أخطائها، ويشكلون لجان التحقيق لكي تمارس دورها التشريعي، وتراقب أداء السلطة التنفيذية "الحكومة"، وهم المنتخبون من الشعب، وممثلوه في المجلس، وحقهم وواجبهم الدستوري العمل من أجل مصالح وحقوق الشعب وكشف عيوب ونواقص السلطة التنفيذية باستخدام الآليات الدستورية المتاحة في المجلس، ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، مخيبة للآمال والتطلعات، بدأت الناس في المجالس وفي وسائل التواصل الاجتماعي تتذمر على أعضاء مجلس النواب وتصب عليهم كل "اللعنات"، ولا يمكن لوم الناس لما أصابهم من خيبات أمل وبسبب الأوضاع المعيشية التي تعاني منها، فهم متابعون لأداء أعضاء مجلس النواب، ولا يقبلون بأي تبريرات، فهم يريدون فعلاً حقيقياً لتجاوز تلك المعاناة، بما يُغيّر من واقعهم البائس والصعب، ليس كما يحدث حالياً لدي بعض النواب "الانحناء ريثما تمر العاصفة" وبعدها تعود الأمور إلى طبيعتها دون إيجاد حلول جذرية لقضايا ومطالب المواطنين.

لذلك فإن المطلوب من أعضاء مجلس النواب في دور الانعقاد الثاني للفصل التشريعي السادس في أكتوبر أن يكونوا ممثلين حقيقيين للشعب، ويقفوا ضد النهج النيولبيرالي المدمر الذي تسير عليه الحكومة، لأنه نهج فاشل يراد منه خصخصة العديد من القطاعات العامة في الدولة وتحويلها للقطاع الخاص، لتتخلى الحكومة عن مسؤولياتها في الحماية الاجتماعية للمواطنين وتحميلهم أعباء مالية إضافية، ناجمة عن الإخفاقات والأخطاء من جانب الحكومة، فهل يجوز هذا؟

إمام أعضاء مجلس النواب ثلاثة أعوام قادمة، يمكن أن يغيروا وجهة الرأي اتجاهم، فالمواطنون يريدون أشياء ملموسة، بكلمات يريدون حياة كريمة أفضل لهم ولأبنائهم، فهل تعدل الصورة المقلوبة للمجلس؟.

مطرقة البرلمان

مفصولو طيران الخليج وحال المراوحة

في ظل الإنشغالات العديدة للرأي العام في البحرين، برزت إلى السطح مجدداً قضية قيام شركة طيران الخليج بفصل ٣٥ من موظفيها البحرينيين، وهي القضية التي استدعت رفضاً برلمانياً وشعبياً كبيرين، ليس لأنها تحدث للمرة الاولى، حيث أن هذه الشركة ومعها العديد من الشركات الكبرى بكل أسف اعتادت المضي في مثل هذه الممارسات التي تنم عن عدم احترام وتقدير للكفاءات الوطنية ودورها في مسيرة التنمية بشكل عام، وتطوّر تلك الشركات ذاتها بشكل خاص، فضلاً عن الاحتياجات المعيشية لمن تطالهم اجراءات التسريح.

عبدالنبي سلمان

نعم، نقول عدم احترام للكفاءات الوطنية نظراً لتكرار عمليات الفصل من قبل هذه الشركة الرائدة، وهي الناقلة الوطنية، نظراً لما صاحب تلك التسريحات من إهانات متعمدة وغطرسة غير مسبوقة في الطريقة التي انتهجتها الشركة تجاه من أفنوا أعمارهم في خدمتها وتطوّرها لسنوات طويلة، وصل بعضها لأكثر من أربعة عقود، حيث قامت الشركة باستدعاءات عاجلة للمسرحين الذين اصطحبوا مخفورين بمعية رجل أمن وممرضة مع استعدادات طبية صاحبت عملية الفصل حتى مرحلة الخروج من البوابة الرئيسة لمبنى الشركة، بحسب أقوال وإفادات المفصولين ذاتهم المتضمنة في محضر الاجتماع الذي دعا اليه على عجل رئيس مجلس النواب وبحضور شخصيات برلمانية، في محاولة لوقف عملية الفصل، وما تلاها من متابعات ومراسلات نيابية مستمرة حتى اللحظة وعلى أعلى مستوى، رغم تطمينات المسؤولين من خارج مجلس الإدارة والإدارة التنفيذية طبعاً، لأن الاخيرين هم من تسببوا بالدرجة الأساس في عملية الفصل وبتلك الأساليب غير الأخلاقية والمفتقدة للحس الإنساني المنتظر منهم.

طبعا لا زالت قضية هؤلاء المفصولين تراوح مكانها دون حلول جديّة، في ظل رفض الشركة عودتهم لمواقع عملهم السابقة، وبذات الإمتيازات والعقود والعلاوات الممنوحة لهم، مع ضرورة رد الاعتبار لهم، ومحاسبة من تسببوا في إثارة الرأي العام بإساءاتهم للعاملين في الشركة وعلى رأسهم كبار المسؤولين في الشركة، وفق ما أكدّ عليه بيان وخطاب مجلس النواب المرفوع للحكومة، خاصة وأن الشركة بطريقة التفافية حاولت أن تتذرع بمتطلبات إعادة الهيكلة، كما جاء في بيانها المنشور للرأي العام رداً على بيان وخطاب مجلس النواب، والرفض الشعبي المترافق والداعم، على الرغم من معرفة الإدارة التنفيذية للشركة ومجلس إدارتها أن تلك الوظائف لم تلغ أساساً، وإنما تمّ فقط تغيير مسمياتها.

وبالتالي يصبح من حق المسرحين العودة لوظائفهم دون إبطاء أو مراوحة، ويتحتم على مجلس إدارة الشركة أن يكون أكثر إقناعاً للرأي العام وللمسرحين بالدرجة الأساس بضرورة الامتثال لعودتهم لوظائفهم ذاتها طالما أن مواقعهم لا زالت قائمة وإن تغيرت المسميات، كما يتحتم على وزارة العمل أن تكون أكثر إصراراً واقناعاً للجميع بأنها تمارس صلاحياتها ودورها المنوط بها في حماية العمالة الوطنية، وهي التي ما برحت تؤكد علنا أن الأولوية للبحرينيين، فيما هي تعلم قبل غيرها أعداد الموظفين الأجانب المتضخمة في طيران الخليج وما تمنحه لهم من رواتب عالية وامتيازات! علاوة على ما يشغلونه من مواقع ويسببونه من استنزاف لموارد الشركة، في وقت يستطيع أبناء الوطن شغل تلك المواقع بسهولة وبكلفة أقلّ كثيراً مما يعطى لهؤلاء الأجانب!

نعلم أن طيران الخليج ليست أول أو آخر شركة تستمر في «تطفيش» أبناء الوطن، على الرغم من حاجتها كناقلة وطنية تعاني من محن فساد وتجاوزات وسوء إدارة مزمن، أن تكون قريبة منهم ومن أسرهم ومجتمعهم البحريني، الذي وقف ويقف مع الشركة وتطوّرها المنتظر في ظل المنافسة المحتدمة إقليمياً ودولياً في صناعة الطيران والسفر، إلا أن هناك شركات كبرى ومتوسطة وصغيرة لا زالت تستفيد من الثغرات الكبرى التي أحدثها تعديل قانون العمل الذي لم تعدّ فيه الأولوية للبحريني، ابن البلد، بكل أسف، لتستمر في عمليات التطفيش والتسريح، والتوقف عن صرف الأجور لأشهر، دون أن تهتم بحجم ما تتسبب فيه من تداعيات اجتماعية ومعيشية خطيرة في ظل صمتٍ غير مبرر أو مفهوم من قبل وزارة العمل أو من الجهات المعنية بأمر تلك الشركات، ليبقى التحدي الكبير أمام المسؤولين عن تلك الشركات غير المنضبطة والمتجاوزة لأبسط حقوق العاملين فيها أن يبرهنوا على التزاماتهم الأدبية والأخلاقية والوطنية تجاه كافة العاملين من أبناء الوطن.

مُعوّقات حصول البحرينيات المعيلات لأسرهن حقوق النفقة

ينصّ دستور مملكة البحرين في المادة (٥) على (أن الأسرة أساس المجتمع، قوامها الدين والأخلاق وحب الوطن، يحفظ القانون كيانها الشرعي، ويُقوّي أواصرها وقيمها، ويحميه من الاستغلال، ويقيه الاهمال الأدبي والجسماني والروحي)، من هنا فإن الأسرة تعد الخلية الأساسية للمجتمع، ينمو ويزدهر باستقرارها. كما أن الدستور يتضمن المساواة في الحقوق بين المرأة والرجل، ودور الدولة في دعم المرأة للتوفيق بين واجباتها نحو أسرتها وبين عملها في بناء المجتمع ومساواتها بالرجال في ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية دون إخلال بأحكام الشريعة الإسلامية وحصول المرأة على حقوقها السياسية والدستورية كاملة.

دينا الأمير

انضمت مملكة البحرين إلى العديد من المعاهدات والمواثيق الدولية التي تتعلق بالتشريعات الخاصة بحقوق المرأة والطفل، مثل اتفاقية حقوق الطفل (1991)، اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (السيداو) (2002)، لتؤكد أن التشريعات الخاصة بالمرأة والطفل في البحرين وجب أن تنسجم وبنود هذه الاتفاقيات والمواثيق الدولية وبما يحقق مصلحة المرأة والطفل.

قانون أحكام الأسرة البحريني

رأى قانون أحكام الأسرة البحريني النور في عام 2017، بعد انتظار طويل ومطالبات بسنّ قانون للأحوال الشخصية من قبل الجمعيات النسائية والناشطات النسويات البحرينيات، لحل العديد من القضايا الأسرية العالقة في المحاكم الشرعية ومنها الطلاق والنفقة، غير أن هذا القانون رغم أهميته لم يلب طموحات المرأة البحرينية، ولم يكن بالمستوى الذي كانت تطمح إليه وناضلت من أجله طويلاً نساء البحرين المنضوية في إطار الاتحاد النسائي البحريني وسائر مؤسسات المجتمع المدني، فقد اعترته ومنذ صدوره، وفي التطبيق، نواقص وعيوب من حيث الشكل والموضوع، وجاءت بعض بنوده مكرّسة لتبعية المرأة، وعليه الكثير من الملاحظات القانونية التي لا تنسجم مع مباديء حقوق الإنسان، ومنها أيضاً الأحكام التي نصّ عليها والمتعلقة بالنفقة والتي تشكل أبرز المعوقات التي تنال من حق النساء المعيلات لأسرهن في الحصول على حقوقهن وحقوق أبنائهن بالنفقة.

ولم تنصف أحكام الطلاق في القانون المرأة، حيث انطوت على تمييز واضح ضدها، حيث تنص المادة (81) (تقع الفرقة بين الزوجين: أ) بإرادة الزوج، وتسمى طلاقاً)، نجد أن نفس المادة تنص على: (تقع الفرقة بين الزوجين: ب) بطلب من الزوجة وموافقة من الزوج مع بذل العوض، وتسمى مُخالعة). كما يسمح القانون بإرجاعها ما دامت في العدة وذلك حسب نص

المادة (93) (للزوج أن يرجع مطلقته من طلاق رجعي ما دامت في العدّة، ولا يسقط هذا الحق بالتنازل عنه). وهذا يعد تعسفاً وظلماً للمرأة حين أعطى القانون حق الطلاق بيد الرجل منفرداً، وسلب حق المرأة في رغبتها باستمرار الحياة الزوجية أو إنهائها. كما أن أحكام الولاية والحضانة في القانون يعتريها الكثير من القصور والذي يحتاج إلى إعادة النظر في صياغاته بحيث يتفق مع أفضل الاجتهادات الفقهية وبما ينسجم مع دستور مملكة البحرين وجميع الاتفاقيات والمواثيق الدولية التي وقعت عليها.

النفقة في قانون أحكام الأسرة البحريني

من أبرز الدعاوى التي تشهدها محاكم الأسرة في البحرين دعاوى النفقات بأنواعها. وقد تكفل قانون أحكام الأسرة البحريني بجمع مواد النفقات وبيان مستحقيها وشروط استحقاقها في الفصل الخامس من القانون حيث تضمن ثلاثة فروع للنفقة: الفرع الأول أحكام عامة، الفرع الثاني نفقة الزوجة، الفرع الثالث نفقة الأقارب.

عرّفت المادة (46) بأن «النفقة حق من حقوق المنفق عليه وتشمل الطعام والكسوة والمسكن وما يتبع ذلك من تطبيب وخدمة وغيرهما مما يقتضيه العرف»، مما يؤكد بأن النفقة حقاً لمستحقيها وكفالة لحقوقهم الشرعية والمادية وليست منحة من المنفق.

وراعى القانون في المادة (47) حالة المنفق عند تقدير النفقة بالنظر لسعة المنفق وحال المنفق عليهم، مع مراعاة الزمان والمكان والأعراف، ويجوز زيادة النفقة أو إنقاصها بتغير حال المنفق أو المنفق عليه، وبالتالي يجب أن تشتمل محاضر الدعاوى في قضايا النفقة على ما يوضح عن حالة الزوج المادية وإمكانياته قبل الحكم بالنفقة.

وتنص المادة (50) "للقاضي أن يقرر بناءً على طلب من الزوجة نفقة مؤقتة لها ولأولادها، وأن يأمر بعودتها إلى منزل الزوجية في حال إخراجها منه، ويكون قراره في كلتا الحالتين مشمولاً بالنفاذ المعجل بقوة القانون". هذه المادة تعتبر من الإيجابيات ولصالح المرأة في حقها في البقاء بمسكن الزوجية وحصولها وأولادها على النفقة.

ومن سلبيات هذا القانون ما نص عليه المادة (49) على أنه: "تجب نفقة الزوجة على زوجها بالعقد الصحيح ولو كانت موسرة إذا مكّنته من نفسها ولو حكماً"، وتسقط نفقتها وتعد ناشزاً، إذا أمتنعت عن الانتقال إلى مسكن الزوجية بدون مبرر، ففي ذلك نوع من الفرض على الزوجة حين تلزم بتمكين نفسها بل يعد إذلال لها، فالنفس البشرية يتعين أن تكون حرّة لا تفرض بالتمكين.

نصت المادة (56) من القانون على حق الزوجة في الخروج إلى العمل، لكنه اعتبر خروجها للعمل على نحو مناف لحقوق الزوج مع طلبه عدم الخروج نشوزاً مسقطاً لنفقة الزوجية، فأفرغ حق الزوجة في الخروج للعمل من محتواه، إذ يظل الرجل هو المتحكم في عمل المرأة الذي يتطلب إذنه ويحق له منعها إن أراد، على الرغم من كل ما قيل عن المساواة بين الرجل والمرأة وأنها تستطيع أن تشغل أي عمل أو وظيفة، فلنتصور وزيرة أو طبيبة يمنعها زوجها عن العمل مثلاً، وإذا أبت عُدّت ناشزاً وسقط حقها في النفقة. فبدلاً من أن تكون الحياة الزوجية مبنية على التفاهم وتقاسم أسباب الحياة والتشارك فيها، فإن الاشتراطات والاستثناءات التي وضعها قانون أحكام الأسرة في البحرين لِحّق الزوجة في العمل تزرع أسباب الخلاف والشقاق بين الزوجين. نرى بأنه لا يجوز حرمان المرأة من حقها في العمل وإثبات ذاتها، وأن تكون فرداً منتجاً في المجتمع. لذا يتعين إلغاء هذه المادة على نحو يجعل للزوجة حق الخيار في العمل دون اشتراط موافقة الزوج على ذلك.

صندوق النفقة البحريني

يعتبر صندوق النفقة من الأدوات المساندة لمواجهة مشكلة بعض النساء البحرينيات اللواتي يعانين من مشكلات ذات علاقة بتأخر أو عدم صرف النفقة، حيث تواجه المرأة المطلقة صعوبة في تحصيل مبالغ النفقة بعد انتهاء الحكم أمام المحاكم الشرعية، حيث أنها تدخل في متاهات لتنفيذ إجراءات الأحكام أو تواجه مشكلات امتناع المطلق عن دفع النفقة، وهي قد تحتاج من وقت إلى آخر إلى مبالغ من المال لتعيل أطفالها.

جاء مشروع صندوق النفقة في البحرين بناءً على الدراسة التي أعدّها المجلس الأعلى للمرأة تنفيذاً لتوصيات «منتدى المرأة والقانون» الذي عقد في البحرين عام 2001 وتوصيات المؤتمر الثاني لقمة المرأة العربية بشأن إنشاء صندوق النفقة، وتم إطلاقه بموجب قانون رقم (34) لسنة 2005. والفئة المستهدفة من صندوق النفقة هم: الزوجة أو المطلقة أو الوالدين أو الأولاد أو كل من تجب لهم النفقة أو من ينوب عنهم قانوناً فيما يتعلق بالنفقات المتأخرة وامتناع المطلق عن دفع النفقة. ويسقط حق المنتفع في صرف النفقة من الصندوق فوراً إذا انتفى سبب استحقاقها المقرر له شرعاً أو قانوناً.

يتبع الصندوق وزير العدل، وله شخصية اعتبارية عامة وميزانية مستقلة. وتتكون موارد الصندوق من المبالغ المخصصة للصندوق في الميزانية العامة، ومبالغ النفقة التي تستوفى من المحكوم عليهم، والهبات والمنح والوصايا التي يقرر مجلس إدارة الصندوق قبولها، إلا إذا كانت من جهة أجنبية فلا يجوز قبولها إلا بعد موافقة الوزير.

تمّ تعديل بعض أحكام اللائحة الداخلية لصندوق النفقة الصادرة بالقرار رقم (44) لسنة 2007، بحيث تمت إضافة أبناء المرأة البحرينية المتزوجة من أجنبي إلى الفئات المنتفعة شريطة إقامتهم الدائمة في البحرين.

إن أهم التحديات التي تواجه مؤسسات المجتمع المدني وفي المقدمة منها الحركة النسائية والسلطة التشريعية في مملكة البحرين هي ضرورة إعادة النظر في معظم أحكام قانون الأسرة لمعالجة وإلغاء ما تعتريه من عيوب وتمييز ضد المرأة بما فيها الأحكام التي نص عليها بشأن النفقة، والتعديل على التطليق (للضرر والشقاق)، وغيرها من بنود.

ضرورة إعادة النظر في أحكام قانون الأسرة لمعالجة وإلغاء التمييز ضد المرأة

ورقة قدّمت في ورشة عمل «صوت واحد.. لتعزيز المنظومة الحقوقية والاقتصادية الحاضنة للنساء في العالم العربي»، المنعقدة في عمّان - الأردن، ١٩ - ٢٠ يونيو ٢٠٢٣.

مسؤولية الرجل وحرية المرأة

استكمالاً لموضوعنا الأخير، والذي تناول مكانة الأسرة ودورها في تكوين المجتمع والحياة؛ نحاول من جديد عبر هذا المقال، البحث عن مسارات النهوض والإرتقاء. هذه المسارات، التي ستقودنا للحديث عن الثنائية الإنسانية، والتي تتمثل في الرجل والمرأة.

جعفر محمد علي

المسؤولية والحرية، هي ثنائيةٌ مهمةٌ في حياتنا، ولا تقلُّ أهميتها أبداً، عند تحليل ومناقشة المواضيع الاجتماعية والإنسانية. والعنوان أعلاه، يضع المسؤولية بمقابل الحرية، تلك التي ينشدها الإنسان الواعي بقيم الحياة ومكانة الإنسان؛ من أجل تحقيق الأهداف العليا، والمتمثلة في الحياة الكريمة وتحقيق الذات.

إن بذور التغيير الحقيقية تبدأ من المجتمع. نعم، لقد رافقني هذا المفهوم كثيراً، عند متابعة الشؤون الاجتماعية المختلفة. ولأن هذا المجتمع – نعيش فيه ونتأثر منه – بل علينا أن نؤثر فيه؛ عندما ندرك المقاييس والمعتقدات الكامنة فيه، التي تميل نحو الجماعة وإلغاء الفرد، وللتقاليد بدلاً من القيم.

إن الرجل والمرأة في الحياة الإنسانية، يستحقان منا دائماً، أن نراهم من خلال مبدأ النصف الآخر. وهذا المبدأ، هو قاعدة رئيسية للنهوض بأي مجتمع؛ خصوصاً في مجتمعاتنا التي لا زالت في بدايات التحديث والنهضة. وصياغة هذا المبدأ في حياتنا اليوم، يكون عبر منهجية التكامل بين الرجل والمرأة؛ من خلال الإرتقاء عن النظرة التقليدية، التي تمنح الأفضلية للرجل وتقلل من مكانة المرأة.

وهنا يجب أن نطرح هذا التساؤل: لماذا نبحث من جديد في هذه المواضيع، التي يجب أن تكون بديهية..؟! والجواب هو: أننا لا زلنا مترددين بين العادات القديمة والقيم الجديدة؛ وننظر إلى أزماتنا العامة، في الحياة والمجتمع والمعيشة، بنظرة التسليم والجمود، بدلاً من التفكير والنهوض. وهذه القيم الأخيرة، بحاجة دائمة، إلى عقلية النقد والتحديث؛ التي تواجه المفاهيم السيئة بحكمة وشجاعة، من أجل الخير العام والمصلحة العامة.

عندما نبحث في النصف الأول من عنوان هذا المقال، نكون عند «مسؤولية الرجل» وما تمثله هذه الكلمة في ميزان الإنصاف؛ الذي لا يتجاوز دور ومكانة الرجل – وبالتأكيد أيضاً – أن لا يتجاوز أخطائه. وإن الصورة التقليدية للرجل، قد تجاوزت المسؤولية إلى الحرية – من مستوياتها المعتدلة إلى اللامبالاة – التي تبررها التقاليد الاجتماعية الجامدة. ويبدأ عند ذالك، تراجع التقدير والمكانة، للزوجة والمرأة، في الأسرة والمجتمع.

مكانة الرجل الحقيقية في الحياة، تبدأ من خلال تفعيل دور المسؤولية لديه – بالمعنى الحضاري وليس بالمعنى التقليدي – والذي نراه عبر الإحترام والعدالة بالدرجة الأولى، وأيضاً عبر مفاهيم الحب والإحترام إلى المرأة. وهذا الحب والإحترام، يبدأ نحو الزوجة ليصل إلى جميع أفراد الأسرة؛ فتكون صورة الرجل الحضارية، واضحة من خلال زوجته وأسرته.

إن غياب الوعي الاجتماعي لهذه الغاية الهادفة، يعكسه تراجع الدور الحضاري للرجل؛ والذي نراه من خلال عدم التقدير، لدور ومكانة النصف الآخر. والقضايا التي برزت على السطح، مثل قضايا «المُعلَّقات» وما يجري عليهن، أي على الزوجات؛ من سرقة وإهانة لحياتهن – تحت مظلة التشريعات والتقاليد – هي إهانةٌ لجميع أفراد المجتمع. ونشعر بالأسى، أن مجتمعاً محدوداً مثل الذي نعيش فيه، ينقسم أفراده وفئاته على المفاهيم الواضحة؛ ليتجاوزهم هذا الإنقسام، نحو قضاياهم المهمة والمركزية، في الوجود والهوية والحياة الكريمة.

الأهداف المنشودة من الرجل في هذا المجتمع، تبدأ أولاً عبر مكانة المرأة ونظرته إليها؛ والتي ترتبط من خلالها نحو الحياة العامة. والذي يعتقد بهذا الفصل، بين أدوار الرجل في الأسرة والمجتمع، سينتهي به الأمر في التناقض والازدواجية. ولأن ايجابية الرجل المتمدّن في الحياة الحديثة، تنعكس على محيطه وأسرته؛ لأنه يرى في «المسؤولية» احتراماً لذاته، والتي نراها عبر قيم التعاون والمصلحة العامة.

إن النصف الثاني من عنوان هذا المقال، يتحدث بكل وضوح عن «حرية المرأة».. ويجب البوح، بأنني شعرت بالتردد قبل كتابة هذا العنوان؛ ليس تقليلاً من شأنه، بل احتراماً لأبعاده، التي تحمل الكثير من الأهمية، للتقدّم والنهوض في حياتنا. ولأن المكانة الراقية والعصرية، التي وصلت لها المرأة البحرينية اليوم، يجعلها غنيَّة عن هذه الكلمة؛ ولكن طموحات النهضة الحقيقية، تُطالبنا أن لا ننسى مبادئ الحداثة الهادفة، التي تعمل حقاً على تأكيد دور المرأة الإيجابي، في الأسرة والمجتمع والحياة العامة، وصولاً لدورها في الإدارة والسياسة.

مفهوم الحرية – مثل غيره من المفاهيم – يتعرض للتشويه والمزايدة؛ خصوصاً عندما يتراجع الوعي والتفكير الذاتي. وعندما يرتبط الموضوع بالمرأة، نشعر بذالك الارتباك لدى الرجل في الآراء والمواقف؛ لأننا بعيدين عن الفهم والتواصل مع المرأة، أي مع

نصفنا الآخر. لذالك، يجب التنوير هنا، بأن الحرية – بشكل عام – نسبية، ولكن معناها بالنسبة للمرأة؛ هي المكانة والاستقلال والشخصية.

الثقافة التقليدية في مجتمعاتنا اليوم، لا تستطيع أبداً تلبية المتطلبات العصرية؛ التي ينشدها الجميع في هذا المجتمع. وطموحات الرجل، في العمل والمكانة والشخصية؛ هي نفسها الطموحات التي تنشدها المرأة. وليس عدلاً أن نستمع بين الحين والآخر، لخطابات الجمود الماضية، تلك التي تحاول أن تفرض نفسها للوصاية على شخصية المرأة، في أدوارها ومسؤولياتها؛ لأن خياراتها الحقيقية في الحياة، تنتمي إلى الاستقلال والشخصية لديها.

في حياتنا البحرينية، لا زالت المفاهيم التقليدية، تؤثر سلباً على طموحات التحديث والتقدّم في المجتمع؛ ومن أبرز تلك التأثيرات، هو مفهوم «المجتمع المحافظ» الذي يكرره دُعَاة العادات الماضية، بذريعة الإلتزام والفضيلة. وإن هذه الكلمة الجامدة، قد تمَّ تصنيفها ظلماً على لباس المرأة؛ ذالك الذي يعتقده الداعين لهذا المفهوم، أنه معنى وجوهر الأخلاق. وفي هذه المسألة تحديداً، تتمثل صورة المزايدة والازدواجية؛ التي تساهم حقاً بتخلُّف هذا المجتمع، بدلاً من نهوضه وتقدّمه. ومكانة المرأة في حياتنا العصرية، تنتمي فعلاً إلى الأخلاق المنشودة؛ والتي نراها من خلال العمل والمكانة والشخصية، وهو جوهر الجمال عند المرأة.

مشاريع الإرتقاء والتحديث، والتي نراها في مجالات الحياة الإنسانية؛ تفتقد اليوم إلى قيم التنوير الحقيقية، التي تساهم حقاً بتطوير مكانة الإنسان في مجتمعاتنا. وإن الإهتمامات السياسية والثقافية – الحاضرة دوماً في الحياة البحرينية – قد تراجعت كثيراً عن قيم التنوير المنشودة، من خلال مناهضة العادات والتقاليد، التي تفصل بيننا وبين طموحاتنا العصرية؛ والذي من شأنه، أن تجعل من طموحات الإصلاح، تُرَاوِحُ مكانها دون أن تتقدّم. وإن الذي ينقصنا في هذه المسألة، هو تلك العقلية التي تعمل وفق قيم الإخلاص والنزاهة؛ تلك التي تنظر إلى اليوم بعيون الغد، من أجل زيادة الخير والهناء في المجتمع.

مسؤولية الرجل وحرية المرأة، هي من أوضح المبادئ الحضارية، التي تعمل فعلاً على الإرتقاء والنهوض بمجتمعاتنا ودولنا. وخطوات التحديث التي نعيشها اليوم، ينقصها الإيمان الحقيقي بالمستقبل، الذي يعمل ويكافح على مواجهة الصعوبات الكبيرة؛ التي تهون حقاً عند تفعيل قدرات الرجل والمرأة معاً، عبر الوعي والعمل والتربية – وعلى قاعدة التعاون الإنساني بينهما – من خلال دور الرجل في المسؤولية والعدالة والحكمة، وحقوق المرأة في الحرية والمكانة والشخصية.

التقدّم والتجديد الدائم

سلامة موسى

(1)

نحن في نهضة فيجب أن نفهم معاني النهضة. ويجب أيضاً، ألا نقف منها موقف المتفرجين؛ إذ علينا، أن نعمل فيها ونعاونها، ونعيش اتجاهاتها نحو المستقبل. النهضة ثراء وقوة وثقافة وصحة وشباب، ولكن قد يكون الثراء مؤلفاً من نقود زائفة، كما قد تكون القوة والثقافة والصحة والشباب خداعاً وليس حقيقة.

(2)

فيما بين سنة 500 وسنة 1000، استولى الظلام على أوروبا، وكان ظلاماً حالكاً؛ لأن الثقافة كانت وقفاً على الرهبان، يبحثون جغرافية العالم الآخر، أي ما وراء الغيب، وهم لا يدرون جغرافية هذا العالم. ويشرحون للناس كيف يجب أن يموتوا، بدلاً من أن يشرحوا لهم كيف يجب أن يعيشوا.

ولكن، رويداً رويداً، تنبه الأوروبيون إلى أنهم جهلاء، ونظروا حولهم، فوجدوا أن الأمم الإسلامية في إسبانيا وفي الشرق، تحيا حياة القوة والذكاء؛ فقصدوا إليها يدرسون وينقلون مؤلفات ابن رشد، وابن سينا، وابن طفيل، وابن حزم، وغيرهم.

ثم لم يقنعوا بما ألفه المسلمون، إذ هم نقلوا أيضاً للغة اللاتينية، مؤلفات الإغريق القدماء، التي كان المسلمون قد ترجموها إلى اللغة العربية، فعرفوا أفلاطون وأرسطوطاليس عن طريق اللغة العربية. واستطاعوا أن يعرفوهم أكثر، عندما هاجر الإغريق من القسطنطينية إلى أوروبا الغربية؛ فأصلحوا أخطاء الترجمة، التي كان المترجمون المسلمون قد وقعوا فيها، عندما نقلوا أرسطوطاليس وأفلاطون وغيرهما إلى اللغة العربية.

(3)

ومضى الناهضون يجترئون ويفكرون؛ ولكن، شيئاً فشيئاً، اتضح لهم، أنهم قد خرجوا وتخلّصوا من قدماء الكنيسة إلى قدماء الإغريق. قدماء بدلاً من قدماء. وإن العرب لا يختلفون عن القدماء؛ لأنهم اعتمدوا عليهم، أي: على القدماء، حتى إن ابن رشد كان يعتقد، أنه لم يخلق في العالم إنسان مثل أرسطوطاليس. وعندئذ تساءل هؤلاء الناهضون: «هل المعارف الحقة الصادقة، تؤخذ من الكتب القديمة أو تؤخذ من الطبيعة ؟»

وهنا نجد رجلاً ألماني الأصل، سويسري الوطن؛ ولد في العام 1493م، يدرس القدماء، ثم ينتقدهم، بدلاً من أن يبارك عليهم، وهو: «بارا كيلسوس». والإسم عجيب، فإنه اختاره لنفسه وترك اسمه الميلادي.

لقد كان «بارا كيلسوس» يلقي محاضراته في مدينة «بازيل» باللغة الألمانية، وهنا نتوقف قليلاً: ذلك أن التعليم، كان إلى وقته وبعد وقته، باللغة اللاتينية في جميع جامعات أوروبا؛ ولكنه أبى أن يلقي محاضراته بهذه اللغة القديمة. كان شعبياً، كان عامياً، أي مع الشعب. واجترأ على أن يعلم بلغة العامة، اللغة الألمانية؛ وكان أول من أقدم على ذلك، في أوروبا جميعها. وكانت محاضراته خاصة بالطب والعلاج. وذات صباح، بعد اختبار وقلق، وتساؤل وأرق، رأى أن يقف الموقف الحاسم في تاريخ أوروبا؛ بل في تاريخ الإنسان. فلم يذهب إلى الكلية لإلقاء محاضراته، كما كانت عادته. ولكنه جمع مؤلفات ابن سينا ومؤلفات جالينوس، وحملها على ظهره، إلى أن وصل وهو يلهث إلى ميدان المدينة، وهناك وضعها أمامه على الأرض وشرع يخطب: إن القدماء ليسوا أفضل منا، وهم لا يعرفون مقدار ما نعرف. إن دراسة القدماء نافعة، ولكن دراسة الطبيعة أنفع منها. إن الكتب القديمة تحفل بالأخطاء، ولم يكن مؤلفوها معصومين.

(4)

لقد انطلقت في أيامنا حيويةٌ جديدةٌ في بلادنا، تجدد القيم والأوزان، في معاني الحياة والاجتماع والرقي؛ ولكننا لا نزال في اختلاط وارتباك وتردد، لا نعرف، هل نأخذ بالقيم القديمة أم بالقيم الجديدة.

ما هي النهضة ؟

هل هي القيم القديمة ؟

إن أسوأ ما أخشاه، أن ننتصر على المستعمرين ونطردهم، وأن ننتصر على المستغلين ونخضعهم، ثم نعجز عن أن نهزم القرون الوسطى في حياتنا، ونعود إلى دعوة: «عودوا إلى القدماء».

* من مقدمة كتابه: «ما هي النهضة».

(قف)

مـا يجـــب أن تتعلمـــــه أوكـــرانيـــا مـــن أفغـــانستـــان

الخاسر الأكبر في العالم لسنة 2022 كانت أوكرانيا، حيث انهار اقتصادها وفقا لصندوق النقد الدولي بنسبة 35%. قد تنتهي الحرب في أوكرانيا ، ليعقبه ربما التعافي الاقتصادي، غير أن ذلك سيعتمد على فهم أوكرانيا لمأزقها كضحية حرب بالوكالة بين الغرب وأمريكا وروسيا، هذه الحرب التي اندلعت أساسا منذ عام ٢٠١٤. كتب الأكاديمي جيفري دي ساكس، وهو رئيس شبكة حلول التنمية المستدامة التابعة للأمم المتحدة مقالة نَشرها مركز آسو للدراسات، تشير إلى أن أمريكا لم تتوقف عن تسليح وتمويل أوكرانيا بشكل كبير منذ عام ٢٠١٤. وذلك بغية توسيع الناتو وإضعاف روسيا. تستمر في العادة حروب الولايات المتحدة بالوكالة لسنوات وأحيانا لعقود تاركة خلفها ساحات القتال– مثل أوكرانيا– تحت الأنقاض.

فهد المضحكي

ما لم تنته حرب الوكالة هذه، فإن أوكرانيا ستواجه مستقبلا قاتما. إن أوكرانيا بحاجة إلى التعلم من التجربة الأفغانية المروعة ، وذلك لتجنب أن تصبح حربها هذه كارثة طويل الأمد. يمكن أخذ العبرة أيضا من الحروب الأمريكية بالوكالة في فيتنام وكمبوديا وجمهورية لاوس الديمقراطية الشعبية والعراق وسوريا وليبيا.

ابتداء من عام 1979 قامت الولايات المتحدة بتسليح حركة المجاهدين الأفغان للضغط على الحكومة المدعومة من السوفيت في أفغانستان. وكما أوضح مستشار الأمن القومي للرئيس جيمي كارتر زبيغنيو بريجنسكي في وقت لاحق، كان هدف الولايات المتحدة هو استفزاز الاتحاد السوفيتي للتدخل في الصراع الأفغاني، وذلك من أجل استنزاف الاتحاد السوفيتي في حرب مكلفة. ولم يقلق قادة الولايات المتحدة بأن تكون أفغانستان مجرد ضرر جانبي في صراعها ضد السوفيت.

دخل الجيش السوفيتي عام 1979 كما كانت تأمل الولايات المتحدة، وخاض معارك كثيرة خلال الثمانينات. في غضون ذلك، أسس المقاتلون المدعومون من الولايات المتحدة وبعض الدول العربية والاقليمية تنظيم القاعدة في الثمانينات، وطالبان في أوائل التسعينيات. ثم انقلبت ضدها "حيلة" الولايات المتحدة بشأن الاتحاد السوفيتي.

في عام 2001، غزت الولايات المتحدة أفغانستان لمحاربة القاعدة وطالبان. استمرت الحرب الأمريكية لمدة 20 عاما إلى أن غادرتها أخيرا في عام 2021. بينما استمرت العمليات العسكرية المتفرقة في أفغانستان التي أصبحت في حالة خراب وفقر مدقع، بالرغم من أن الولايات المتحدة قد أهدرت أكثر من 2 تريليون دولار من النفقات العسكرية الأمريكية، حيث يقل إجمالي الناتج المحلي عن 400 دولار للفرد سنويا لعام 2021. ومن باب التعويض على مغادرتها، صادرت الحكومة الأمريكية مدخرات افغانستان القليلة من النقد الأجنبي في عام 2021، مما أدى إلى شل النظام المصرفي.

بدأت الحرب بالوكالة في أوكرانيا قبل تسع سنوات، عندما دعمت الحكومة الأمريكية عملية الإطاحة بالرئيس الأوكراني فيكتور يانوكوفيتش. كانت خطيئة يانوكوفيتش من وجهة نظر الولايات المتحدة هي محاولته الحفاظ على حياد أوكرانيا، وذلك بالرغم من رغبة الولايات المتحدة في توسيع الناتو ليشمل أوكرانيا وجورجيا. كان هدف أمريكا أن تقوم بتطويق روسيا من قبل دول الناتو في منطقة البحر الأسود. لتحقيق هذا الهدف، دأبت على تسليح وتمويل أوكرانيا على نطاق واسع منذ عام 2014. الأبطال الأمريكيون آنذاك والآن هم نفس الوجوه. كان الشخص المسؤول عن حكومة الولايات المتحدة بشان أوكرانيا في عام 2014 هو مساعد وزير الخارجية فيكتوريا نولاند، الذي يشغل اليوم منصب وكيل وزارة الخارجية. في عام 2014، عمل نولاند عن كثب مع جيك سوليفان، مستشار الأمن القومي للرئيس جو بايدن، والذي لعب نفس الدور لنائب الرئيس بايدن في عام 2014.

تجاهلت الولايات المتحدة حقيقتين قاسيتين في أوكرانيا. الأولى: هي أن أوكرانيا منقسمة بشدة عرقيا وسياسيا بين القوميين الكارهين لروسيا في غرب أوكرانيا والروس من أصل روسي في شرق أوكرانيا وشبه جزيرة القرم.

والثانية: هي أن توسيع الناتو ليشمل أوكرانيا يتجاوز الخط الأحمر الروسي. ستقاتل روسيا حتى النهاية ،لمنع الولايات المتحدة من ضم أوكرانيا إلى الناتو.

تؤكد الولايات المتحدة مرارًا وتكرارًا أن الناتو هو حلف دفاعي ومع ذلك، قصف الناتو صربيا حليفة روسيا لمدة 78 يومًا في عام 1999 من أجل استقلال كوسوفو عن صربيا، وبعد ذلك أقامت الولايات المتحدة قاعدة عسكرية عملاقة في كوسوفو. وبالمثل أطاحت قوات الناتو بمعمر القذافي في عام 2011، مما أدى إلى الفوضى في ليبيا. وبالتالي بات من المؤكد أن روسيا لن تقبل أبدا الناتو في أوكرانيا.

في نهاية عام 2021 ،قدم الرئيس بوتين ثلاثة مطالب إلى الولايات المتحدة: يجب أن تظل أوكرانيا محايدة وخارج الناتو؛ يجب أن تظل القرم جزءًا من روسيا؛ ويجب أن يصبح إقليم دونباس مستقلا ذاتيا وفقا لاتفاقية مينسك الثانية.

رفض فريق بايدن– سوليفان– نولاند المفاوضات بشأن توسع الناتو، بعد ثماني سنوات من دعم نفس المجموعة للإطاحة بيانوكوفيتش. مع رفض طلب من بوتين التفاوضية رفضا قاطعا من قبل الولايات المتحدة، بدأت العملية العسكرية الروسية الخاصة في اوكرانيا في فبراير 2022.

في مارس 2022، وقد بدا أن الرئيس الأوكراني زيلينسكي بات يتفهم مأزق أوكرانيا الرهيب باعتباره ضحية حرب بالوكالة بين الولايات المتحدة وروسيا. فأعلن صراحة على الملأ أن أوكرانيا ستصبح دولة محايدة ، وطالب بضمانات أمنية. كما اعترف علنًا بأن شبه جزيرة القرم ودونباس ستحتاج إلى نوع من المعاملة الخاصة.

انخرط رئيس وزراء الكيان الصهيوني في ذلك الوقت، نفتالي بينيت، في دور الوسيط إلى جانب تركيا، اقتربت روسيا وأوكرانيا من التوصل إلى اتفاق. ومع ذلك، فإن الولايات المتحدة "أعاقت" عملية السلام.

«بريكس» في صعود

رغم التحولات الجذرية في عالم اليوم، ثمّة من يصر على أنها لن تمس من هيمنة المعسكر الغربي على العالم، ولسنا نجادل في أمر هذه القوة، ولكن ما من شيء في الدنيا باق على حاله إلى الأبد، بما في ذلك أحوال الأمم، فما أكثر الأمم التي كانت في صدارة الحضارة في مراحل من التاريخ، ثم تراجعت، وفقدت ما كان لها من تأثير، والسيناريوهات مختلفة، فقد يحدث ذلك بسرعة مدوية نتيجة لكارثة أو هزيمة مدوية في حرب، وقد يحدث بالتدريج، حين تتآكل عناصر القوة وتذوي، حتى تغيب، وبالمثل هناك أمم كانت ضعيفة ومهمشة وخاضعة لسيطرة من هم أقوى منها، تمكنت بعزيمتها وبرؤيتها المستقبلية بعيدة المدى من أن تتجاوز ما كانت عليه من ضعف، وتتقدم نحو الصدارة أو نحو ما يقود إلى هذه الصدارة، وتساءلنا هنا، مرةً، عما إذا كان بوسع ما كانت تعدّ أطرافاً من الدول أن تغدو مركزاً، ورجحنا أن هذا حدث ويحدث.

لنا في مجموعة «بريكس» مثالاً، وقدّمت قمتها الأخيرة في جنوب إفريقيا أدلة على أن دول المجموعة في حال صعود، لتغدو منافساً جدياً لمجموعة السبع التي ينظر إليها على أنها نادي الأغنياء، فقمة جوهانسبورغ ناقشت تقليص هيمنة الدولار على نظام المدفوعات الدولية من خلال اعتماد التبادل التجاري بالعملات المحلية، وصولاً إلى إنشاء عملة مشتركة، وكان الخبر الأبرز هو قبول ست دول كأعضاء في المجموعة، بينها الإمارات والسعودية ومصر، ما زاد عدد أعضاء المجموعة أكثر من الضعف، وهناك اجماع لدى من يتحلى بالموضوعية من خبراء السياسة والاقتصاد، على أن هذا التوسع سيعود بمنافع كبيرة على اقتصادات جميع الأعضاء، السابقين والجدد، وعلى الاقتصاد العالمي عامة، فبمقدار ما ستضيفه الدول التي قبلت عضويتها من قوة اقتصادية للمجموعة، فإنها بدورها ستجني منافع تسهم في تطوير اقتصاداتها.

تولي «بريكس» اهتمامها الأساس إلى التعاون الاقتصادي، وتسعى إلى النأي عن نهج الإملاءات السياسية الذي اعتادته الدول الغربية في علاقاتها مع حلفائها، ومنح هذا النهج «بريكس» جاذبية، كونه يتيح للدول الأعضاء فضاءاً من استقلالية القرار في عالم سريع التحوّل وإعادة التشكّل في صورة جديدة غير تلك التي سادت ما بعد الحرب العالمية الثانية، واستمرت حتى بعد انتهاء ما عرفت بالحرب الباردة، التي انبعثت في صورة أشدّ ضراوة، كما تكشف ذلك الحرب الطاحنة في أوكرانيا.

انقلابات أفريقيا

ما جرى في أفريقيا، أطلق عليه عدة تسميات منها «الربيع الأفريقي» على غرار «الربيع العربي 2011» الذي تحوّل إلى خريف، فهل هي صحوة أفريقية للخلاص من المستعمر القديم وتحديداً المستعمر الفرنسي الذي نهب خيرات وثروات البلدان الأفريقية التي احتلها في السابق وبعد حقبة الاستقلال الوطني في ستينيات القرن الماضي ونيل العديد من تلك البلدان استقلالها الوطني، الأ أنه بقي في بعضها ومن ضمنها الغابون عودة الاستعمار الفرنسي في السنوات اللاحقة على الاستقلال، لهذا يشعر الأفارقة بأن استقلالهم الوطني منقوص، طالما بقي هناك الفرنسيون أو من يتعاطف معهم لمصالحه الخاصة وإنْ كانت على حساب السيادة الوطنية وحريتهم، ومن هنا يصرُّ قادة الانقلاب العسكري في النيجر والمدعوم شعبياً على خروج القوات الفرنسية ومعها سفير فرنسا نفسه، وهناك تجمعات أمام السفارة الفرنسية في نيامي العاصمة تدعم مطالب العسكر وتؤكد على مغادرة السفير الفرنسي للبلاد.

مايجري في النيجر يختلف عن الانقلابات العسكرية السابقة في البلدان الأفريقية بسبب الالتفاف الجماهيري حول العسكر ودعم مطالبهم ومواقفهم، وسبقت النيجر بوركينا فاسو و مالي بانقلابات عسكرية مماثلة سقطت فيها الحكومات الموالية للفرنسيين، والتي يفترض بأنها وصلت للحكم من خلال انتخابات تزعم بأنها حرة ونزيهة، ولكن قرارها السياسي مرهون بفرنسا وما تمليه على تلك الحكومات، وطالما مصالحها لا تُمس، فإن فرنسا لن تطلب منها بأن تصون الديمقراطية والحريات العامة واحترام حقوق الإنسان، فتلك مجرد شعارات تُرفع، والواقع على الأرض غير ذلك: فساد مستشر في الحكومات، ولنا خير دليل في ما حدث مع وزير من الغابون أرًاد الهروب وتم القبض عليه وفي حوزته الآلاف وربما ملايين الدولارات، وما هذا إلا نموذج واحد من الفساد والرشاوى في بلدان تعاني شعوبها من الفقر والجوع والأمراض، وبالمقابل تُسرق ثرواتها وخيراتها في وضح النهار من قبل المستعمرين السابقين الذين يرفضون مغادرة تلك البلدان حتى لو استخدموا القوة العسكرية سواء كانت مباشرة أو عن طريق وكلائهم المحليين وبعض حلفائهم الاقليميين.

هل تمضي سيناريوهات الانقلابات العسكرية في أفريقيا لتحقق لشعوبها ما عجزت عن تحقيقه العديد من الحكومات التي حكمت لعقود من السنين منذ فترة ما عُرف بالاستقلال الوطني في بداية ستينيات القرن الماضي، حين خرج المستعمر الأجنب، وبالاخص الفرنسي، بفضل نضالات وتضحيات الشعوب الأفريقية، ودخل من جديد من خلال شركاته المتعددة وأصبح يتحكم في ثروات العديد من البلدان الأفريقية.

يريد الضباط الأفارقة الشباب اليوم كنس آثار المستعمرين السابقين، ويعيدون إلى أفريقيا وهج الحرية، فهل تنجح هذه الخيارات الجديدة القديمة؟

ف. ح

من ذاكرة الصحافة

أجمل من مارلين

في مطلع صدور صحيفة «الأيام» في السابع من مارس عام ١٩٨٩، تقدّم للعمل فيها عدد كبير من الشباب والشابات. كنّا في نهاية الثمانينات ومطلع التسعينات نفتقد الصحفيين البحرينيين، وخريجي الإعلام والمحترفين وأصحاب الخبرة إلا ما ندر. لاحقاً تأسست كلية الإعلام في جامعة البحرين عام ٢٠٠٢، وأمدّت الصحف والمطبوعات الجديدة بعددٍ كبير من الخريجين والخريجات.

عصمت الموسوي

وقد استقدمت الصحيفة الوليدة جميع رؤساء الأقسام ومدير التحرير من مصر أولاً، ثم الأردن لاحقاً. كانت الجريدة تصدر في 24 صفحة، وتحتاج مادة محلية متدفقة وغزيرة يومياً، ولم يكن طاقم التحرير المتوفر قادراً على تلبية احتياجاتها، لذا فتحت الصحيفة الباب للتوظيف الصحفي، وكنّا نسأل المتقدم للوظيفة عدّة أسئلة بسيطة تتعلق بهواياته وميوله، والأهمّ قدرته على الكتابة الصحيحة، وعني شخصيا فقد كنت أهتم بسؤال أوّلي لطالب الوظيفة: ماذا تقرأ ؟، إذ كنت أرى أنه الطريق الأسهل لمعرفة الشخص.

على أنّ هناك من الطرائف التي لا تنسى في هذا المجال.

إذ تقدمت إلى الصحيفة شابة مغطاة بالكامل من رأسها الى أخمص قدميها، وجلست تتحدث معي عن رغبتها القوية في امتهان الصحافة، واشترطتُ عليها ان ترفع «البوشية» على الأقل، كي أرى تعابير وجهها، قالت: ليخرج الشباب من الصالة أولاً، وامتثلتُ لأمرها وأخلينا الصالة من جميع الذكور، ورفعت الفتاة نقابها، وكانت فتاة عادية ومتواضعة الجمال، قلت لها:

– لماذا تغطين وجهك؟

* لأن الجمال يفتن

– وجه كوجه مونرو هو الذي يفتن.

* أنا أجمل منها

واحتجتُ وقتاً طويلاً لإقناعها بأن إظهار الوجه ضروري للتعاطي مع الصحافة والمصادر الخبرية ومقابلة الناس، لكنها أصرّت ان لا شيء يمنع العمل الصحفي بغطاء الوجه ثم اختتمت: «الآن وفي هذا العمر، وفي البيئة التي أعيش فيها فإن رفع النقاب صعب جداً، لكني سأحاول.

وذات مرة سألتُ أحد المتقدمين للوظيفة ماذا تقرأ؟

* أنا لا أقرأ أبداً

– حتى الجريدة؟

*وخصوصا الجريدة، بل إني أكره الجرائد، ولم أتصفح يوماً جريدة في حياتي.

– وكيف ستعمل في مكان وأنت تكره المنتج الذي يصنعه؟

* أتعلّم منكم ... إذا وظفتموني

التدريب قد يكون طريقاً طويلاً لكنه ليس مستحيلاً...

* يعني ... لا توجد فرصة؟

توجد إذا رغبت وأقدمت على التعليم والتدريب في المهنة.

أين تعمل الآن؟

* أعمل طبالاً في فرقة الطرب الشعبي، فرقة «قدور».. هل سمعتِ بها؟ (قدور فرقة طرب وغناء شعبي راجت في السبعينات والثمانينات). وأضاف: أريد عملاً يدرّ عليّ دخلاً ثابتاً ومستقراً وغير متقطع، فأنا – أصارحك القول – بلا مواهب سوى العزف على الطبلة».

إقرأ الصحيفة أولاً ثم تعال إلينا ونحن سنتكفل بالباقي.

وقبل أن يغادر استدار قائلاً: سأحاول.

هكذا كان شأن جريدة «الأيام» في بداياتها، ظلت تستقطب أشكالاً وألواناً من المبتدئين والمبتدئات، وبعضهم أقدم على المحاولة معتقداً أنها مهنة سهلة ومقدور عليها، لذلك كنا نسميها مهنة من ليست له مهنة ولا شهادة، إذ يكفي أن يجيد المرء اللغة العربية كتابة وتحدثاً حتى يلتحق بها ويتعلم المهنة سريعاً ثم تتكفل الممارسة اليومية بصقل تجربته وتدريبه على قواعدها ومحاذيرها، ولكن ولأنها كانت ولا زالت اقرب الى «درب الزلق» فإن كثيرين لم يُعمروا فيها، وغادروها سريعاً مع أول تحدٍ.

وقد تبيّن لي لاحقاً أن الشباب القادمين من ملاعب الكرة والبنات الرومانسيات عاشقات الشاعر نزار قباني، هم الذين تركوا العمل الصحفي باكراً، وفي حين تعامل معها آخرون كساحة للنضال وصنع التغيير، وجد فيها البعض طريقاً سهلاً للصعود الشخصي، مع أن مواهبهم لا تختلف كثيراً عن مواهب طبّال فرقة «قدور»، بيد أن العصر الرقمي كان قاسياً على الصحافة إجمالاً، والصحافة الورقية والتقليدية بشكل خاص، والتي لم تعدّ من المهن المرغوبة والواعدة والمستقرة الراتب، كما كان يراها ذلك الشاب عازف الطبل. تبدلت وتحولت ويهددها اليوم منافسون كثر، وفي مقدمهم ما صار يعرف بالذكاء الاصطناعي وبرامج شات جي بي تي chat gpt، كما صار بإمكان صحفي واحد أو عدّة صحفيين أن ينشئوا صحيفة رقمية كاملة وهم جالسون في مقهى، دون الحاجة إلى مبنى أو مطبعة أو جهاز إداري.

التطوير المنهجي

قاسم الحلال

إن ارتقاء الوعي الاجتماعي واتساعه مرهون بتطور العلوم المنهجية التي تُقدّم لطلبة المدارس، كونها الطور الأول للارتقاء في تلقي التعليم، ولن يتمتع الطالب بوعي اجتماعي خلاق إلا إذا كانت المناهج تحمل تعاليم مبنية على أسس تربوية صحيحة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسلوك الاجتماعي، وبهذا لا بد من نقد صريح واضح للمناهج التي عفى عليها الزمن لتردي منهجيتها في العلوم والتربية، حيث انعكاسها على سلمية البناء في نفسية الطالب وبالتالي انعكاسها على البيئة الاجتماعية المناطة بتشريعات جديدة تناسب المتطلبات الاجتماعية.

هناك خلل يجب معالجته لكي نسلك طرقاً سليمة، والمقصود بذلك التعليم الناجح بغية خلق بيئة اجتماعية سليمة لمستقبل زاهر متحضر نافع.

ان هذه الخطوات تحتاج الى نضج سياسي، للخروج من سلبيات أعاقت الكثير من إيجابيات التطور الذي حرمت منه أجيال، وعليه فإن الجهات المعنية مطالبة ببذل جهد من أجل أن تصنع وطناً بالتعاون بالطبع مع جمعيات المجتمع المدني التي أنشأت لأجل مواجهة هذه المعضلات، وذلك لبناء صرح تعليمي وتربوي واعي ووضعه على سكة النهضة العمرانية والسمو بركب تقنية المعلومات الذي تخلف العلم عن اللحاق بها، ولابد من وضع استراتيجية لتمكين مراحل خطوها والابتعاد عن العصبيات والعنصرية والطائفية لنضمن مساراً صحياً مستمراً تستنير به الأجيال القادمة جيلاً بعد جيل بقناعة راسخة ثابتة.

اغتيال المواهب

يلجأ البعض ممن يعانون من الخيبة في حياتهم حين يصابون بفشل في رفع مستواهم الثقافي والعملي، حيث لا يستطيعون أداء واجباتهم والقيام بدورهم في رفع مستوى الآخرين، يبحثون عن عيوب وثغرات، وبالذات في من يرونه يسعى جاهداً لتطوير ذاته ورفع مستوى الوعي الاجتماعي.

هذه الشريحة في المجتمع يسيئون ويعرقلون المهام دون شعور بالمسؤولية، انهم يعالجون احباطاتهم للتنفيس عن رغبة مكبوتة في افراغ منجزات الآخر وحرمانه من الشروع في بناء وتطلعات المجتمع، وبهذا يقلقون الإنسان ويلغون دوره، رغم انهم لا يتمتعون بمقدرة لكبح منجزات سخرت لخير الإنسان، لأن الطرف الآخر يمتلك القدرة والمرونة في التعامل مع هذه الإشكالات غير المؤثرة.

إن هذا الصنف من الناس لا يقرأون، وإذا قرأوا لا يفهمون عمق ما يقرأ، أي لا يدركون مقصد ما قرأوه، لذى تراهم يتخبطوا في التآويل والأقاويل، فلو تركوا الحقد وبدأوا حياة جميلة وتعاملوا مع الواقع لأنجزوا أشياء مفيدة لمجتمعهم، لأن البعض منهم في دواخلهم صفات طيبة، لكن القسوة والوجع والاضطهاد قادهم لهذه السلوكيات، حيث أفرغوا كل هذه الكوامن من شعور بالألم والقسوة إلى استسلام النفس بالتنفيس عن ذلك في نقد غير صائب، بل نقد من أجل النقد، فتحولوا إلى مزعجين للراحة والاستقرار النفسي، وما سلوكهم هذا إلا نتاج غياب الشعور بأهمية الوعي الاجتماعي، وقد سبق وأن تطرقنا مراراً في مقالات سابقة لتداعيات وخطورة هذا التساهل في التركيز على هذه الملاحظات الهامة، حيث من المحتمل أن يأخذ منحى خطيراً مضاداً يمزق أبناء المجتمع لعدم إدراك حجم التداعيات وما يترتب عليها من سلبيات.

إن المقياس الحقيقي لأي نظرية هو الممارسة في الحياة العملية، وإن نظرية بلا ممارسة حتى لو كانت النظرية مقدسة لن تفلح بمعالجات حقيقية مؤثرة في المجتمع، وفي اتخاذ خطوات ناجحة بعد تصحيح قناعاتها، إلا اذا وضعت برنامجاً ديموقراطياً يسمح للجميع بممارسة حق الاجتهاد بحرية تامة، لكي تستطيع فعلاً أن تثبت جدارة جديتها في اتخاذ قرارات صائبة، كما أن معيار الجدية في عملية الإصلاح الجماعي هو أن يوضع في الحسبان التمسك بالأولويات، بحيث الانتباه والالتفات بأن المذهب يكون ضمن الايديولوجية أو العقيدة والعقيدة ضمن القومية، وذلك لكي لا يكون المسار أعرجاً يسوده التهميش أو الانحياز، حيث استصغار الأفكار والإقلال من الحريات، فهوية الوطن هي المركز.

في خضم هذا التشكيل والعطاء يجب أن لا يغيب عن أذهاننا الجوانب الأممية، حيث أن مسارنا النضالي ليس بمعزل عن ما يجري على الساحة العالمية وارهاصات ما يدور فيها من حروب وتكتلات ومؤامرات.

إن هذه اللفتة لابد أن تبقى ضمن حساباتنا، حيث هناك خصوم يحومون حول كلما نريد أن نحققه لوضع صمام امان يصنع آمال مستقبل لوطننا، ممن يسعون لوأد مبتغانا الذي نسعى جميعاً لتطويره بتكاتفنا.

أزمات المجتمع المدني العربي

بشكل خجول نسبياً، بدأ مصطلح المجتمع المدني، يدخل الحيّز العربي العام، في مطلع التسعينات من القرن الماضي، في لحظة تاريخية فارقة لها الكثير من الدلالات، تمثّلت في نهاية الحرب الباردة، وسقوط الاتحاد السوفييتي، وصعود العولمة مدفوعة بالثورة الصناعية الرابعة، ثورة التقانة والاتصالات، وذلك الدخول للمصطلح جاء مع تحوّلات في اليسار العربي، الذي تبنى عدداً لا بأس به من مناضليه السابقين فهماً جديداً للعمل من أجل التغيير المجتمعي والسياسي، قوامه منظمات المجتمع المدني، بديلاً عن الأحزاب السياسية، وما تشترطه من إديولوجيا، وآليات تنظيمية صارمة.

حسام ميرو

بشكل خجول نسبياً، بدأ مصطلح المجتمع المدني، يدخل الحيّز العربي العام، في مطلع التسعينات من القرن الماضي، في لحظة تاريخية فارقة لها الكثير من الدلالات، تمثّلت في نهاية الحرب الباردة، وسقوط الاتحاد السوفييتي، وصعود العولمة مدفوعة بالثورة الصناعية الرابعة، ثورة التقانة والاتصالات، وذلك الدخول للمصطلح جاء مع تحوّلات في اليسار العربي، الذي تبنى عدداً لا بأس به من مناضليه السابقين فهماً جديداً للعمل من أجل التغيير المجتمعي والسياسي، قوامه منظمات المجتمع المدني، بديلاً عن الأحزاب السياسية، وما تشترطه من إديولوجيا، وآليات تنظيمية صارمة.

كان اليسار العربي عموماً، في محنة كبرى، فقد سقط ظهيره الدولي (الاتحاد السوفييتي)، وبدت كل تضحيات هذا اليسار فجأة، أنها قد ذهبت سدى، بما فيها سنوات الاعتقال التي قضاها عشرات الآلاف من المناضلين الحزبيين في السجون، دفاعاً عن أفكار العدالة والاشتراكية ،وقد وجدوا ضالتهم في «المجتمع المدني»، والعمل من أجل توسيع هوامش الحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان، وقد تأسست لأجل هذا الهدف بضع جمعيات، راحت مع الوقت تتكاثر، وتتحوّل في صيغها ووعيها وعلاقاتها، على مدار العقود الثلاثة الماضية.

إذن، أولى أزمات المجتمع المدني العربي، ولدت فعلياً من كونه جاء كردّ فعل على انتكاسات الحركة السياسية عموماً، واليسارية خصوصاً، وثانية تلك الأزمات تمثّلت في اعتبار أن هذا الشكل النضالي الجديد، أي منظمات المجتمع المدني، أكثر مطابقة للواقع الاجتماعي والسياسي العربي، وبالتالي، فإن نتائجه ستكون أفضل، نظراً لانطوائه على مميزة افتراضية، وهي الجاذبية، بسبب عدم وجود إيديولوجيا صارمة، لها اشتراطاتها، وبالتالي، فإنه سيشكّل تجربة أكثر جاذبية لجيل الشباب من البنى الحزبية القديمة.

في واقع الأمر، هذه الولادة المبنية على ردّ فعل على فشل العمل الحزبي/ السياسي، لم ترسم إطارها الأولي فقط، بل حدّدت مسارها اللاحق أيضاً بشكل واسع، بوصفها بديلة عن العمل السياسي، قبل أن تنظر إلى المجتمع ذاته، الذي ما زالت الكثير من آلياته محكومة وتابعة لترسيمات المجتمع الأهلي، ما قبل السياسي، تلك الترسيمات التي ستظهر مدى حضورها في البلدان التي عاشت اضطرابات التغيير في العقد الماضي، من خلال صعود الهويّات الفرعية/ الأهلية، ما دون الوطنية، الدينية، والمذهبية، والمناطقية، والعرقية، وغيرها.

استراتيجية قسم لا بأس به من الأنظمة السياسية العربية، كانت احتواء هذه الظاهرة الجديدة، ومنحها بعض الهوامش للعمل، مع رسم خطوط حمراء لا ينبغي للعمل المدني تجاوزها، بحيث يتمّ التنفيس عن بعض احتقانات الشأن العام، وإظهار حالة انفتاح على نخبة جديدة، تمثلها شخصيات أكاديمية وكفاءات ووجوه اجتماعية مرموقة، ما يوحي بوجود ملامح للحياة الديمقراطية، تستفيد منها الأنظمة والحكومات لإظهار وجه حديث وحداثي، وقابلية للانفتاح على الآخر المختلف، في إطار الاتفاق على عدم تجاوز المبادئ الوطنية الأساسية.

والديناميات المحلية، بما فيها معاندة الأنظمة السياسية لحدوث تغييرات بنيوية عميقة، وتأخر البنى الاجتماعية، خصوصاً في رسوخ الجانب المحافظ فيها، وغياب اقتصاد رأسمالي حر، كل ذلك، لم يسمح بحدوث تقدّم وتوسّع في حركة المجتمع المدني، وهو أمر يبدو طبيعياً، بالنظر إلى القياس التاريخي، فالمجتمع المدني الغربي هو الابن الطبيعي للرأسمالية الصناعية من جهة، والسياق التنويري من جهة ثانية، بينما لا تزال معظم الدول العربية تعيش حالة هجينة في الاقتصاد، مع مستويات تدخّل وتوجيه كبيرة من قبل الحكومات بآليات عمل السوق.

وفي عدد من البلدان العربية التي وقعت في حالة حروب وصراعات عسكرية داخلية، ونشوء سلطات أمر واقع عدة، وتدخلات إقليمية ودولية، تأسّست الآلاف من منظمات المجتمع المدني، المدعومة من قبل مؤسسات الأمم المتحدة، أو مؤسسات غربية، أمريكية وأوروبية، ما جعلها تتحوّل إلى أذرع محلية لتلك المؤسسات.

تحويل العمل المدني في العالم العربي إلى عمل بيروقراطي، هو السمة الأبرز والأزمة الأكبر في العقد الماضي، خصوصاً المنظمات المدعومة غربياً، ما جعل من الكفاءات المنخرطة في هذا المجال، معنية بوجودها، وتحسين شروطها، أكثر مما هي معنية بتحقيق الأهداف المعلنة في برامجها، وضمن هذا السياق، أصبحت معنية بالحصول على رضا المؤسسات الغربية الداعمة، أكثر من حصولها على رضا الفئات الاجتماعية التي تزعم أنها تقوم بتمثيل مصالحها.

غاندي والدين

يذكر غاندي في سيرته (قصة تجاربي مع الحقيقة) عندما كان في جنوب إفريقيا، وهَاله الوضع الحقوقي والإنساني للهنود خاصة، ومن غير ذوي البشرة البيضاء عامة: «جعلتُ من دين الخدمة دينًا لي، إذ شعرتُ أن اللّه لا يمكن أن يُدرك إلا من خلال الخدمة».

جلال إبراهيم

في جنوب إفريقيا توسع أكثر في دراسة الهندوسية التي ينتمي إليها، فزاد تمسكهُ بها، إلا أنها لم تُولّد في داخلهِ أيّما كره للأديان الأخرى. فعندما قام بدراسة لكتب تولستوي تركت في نفسه أثرًا عميقًا، حيث أدرك إمكانيات الحب الشامل اللانهائية.

وفي مقارنتهِ بين يسوع وبوذا، استنتج غاندي بأن الأخير لم يكن حنانهُ مقصورًا على الجنس البشري، بل امتد إلى جميع الكائنات الحية. وذات مرة كان على مائدة مع صديقه المسيحي فأخذ يتحدث بسخرية عن قطعة اللحم الموجودة في صحنهِ، في حين راح يطري التفاحة في صحنهِ هو إطراءًا عظيمًا، وبعد هذه الحادثة وبّخ نفسه طويلاً وتعلّم درسًا بليغًا في أهمية احترام الأديان وطقوسها المختلفة.

وعندما قرأ غاندي كتاب (حياة محمد وخلفائه) لواشنطن ايرفنغ، وما كتبه كارليل في النبي محمد ومديحه له، زاد احترامه لمحمد. كذلك يشير غاندي إلى إعجابهِ بالزرادشتيه لما انتهى من قراءة كتاب (أحاديث زرادشت).

كل ما سبق يجعلنا نستنتج أمرين هامين: الأول هو أن القيام بدراسة مُقارنة بين الأديان بعقلية علمية منفتحة تُوصل صاحبها إلى احترام الأديان الأخرى وإلى إبراز الجوانب الإيجابية والإنسانية فيها. الأمر الثاني أن جوهر الدين يكمن في خدمة الناس، وخصوصًا الفقراء والمظلومين منهم، وهنا تكمن قيمته التي يفقدها عندما يصطف الدين ورجالهِ مع سلطة الدولة المستبدة.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على مؤسساتنا الدينية بمختلف أطيافها في الوطن العربي، لوجدناها مهتمة بالمظهر في مقابل تهميش الجوهر. نعني بذلك الاهتمام المبالغ فيه بالطقوس والعبادات، وبالدعاء بالويل والثبور على العامة من الناس في عدم التزامهم بخطب الواعظين في المساجد وغيرها، في حين يوجدون التبريرات الواهية لظلم واستبداد رجال الدولة.

وبدلاً من الحديث في خطبهم عن قيم التسامح والمحبة والرحمة والسلام بين الخلق، ينخرون عقول الناس بكل ما هو مثير للحقد والكراهية والعدوانية تجاه المختلف معهم في الدين والمذهب.

لم ترق دعوات غاندي للأغلبية الهندوسية باحترام حقوق الأقلية المسلمة، واعتبرتها بعض الفئات الهندوسية المتعصبة خيانة عظمى فقررت التخلص منه.

وبالفعل، في 30 يناير سنة 1948 أطلق أحد الهندوس المتعصبين ويدعى ناثورم جوتسى ثلاث رصاصات قاتلة سقط على إثرها المهاتما غاندي صريعًا عن عمر يناهز 78 عاماً.

ليتنا نتعلم من غاندي أن الدين قبل الطقوس والعبادات، هو دين لخدمة الناس ورفع العوز والفقر عنهم، وفي إنارة قلوبهم وعقولهم بقيم المحبة والعدالة والعفو والتسامح وحب العلم والمعرفة لإعمار مجتمعاتهم ودولهم نحو الأفضل والأرقى.

أخفُّ من «رضوى»

قابلت في مسيرتي الإعلامية الممتدة على مساحة أكثر من عقدين في تقديم وإعداد البرامج الثقافية شخصيات كثيرة، بعضها ترك انطباعا لم تستطع الأيام محوه، والبعض الآخر خلّف وراءه خيبة ذكّرتني بالمثل العربي القديم «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه». ومن هؤلاء الذين قابلتهم الروائية والناقدة المصرية الراحلة رضوى عاشور، وحدث لي معها موقف واحد لخّص لي ما انطوت عليه نفسها الكبيرة من تواضع وبساطة كانا سمة ميّزتها. وقد عرفت رضوى عاشور بادئ الأمر من خلال روايتها المذهلة «ثلاثية غرناطة» وقد كانت مقرّرة علينا في مرحلة البكالوريوس في جامعة البحرين، وحين ذهبت إلى القاهرة لإعداد رسالتي للماجستير كان اسم «رضوى» ملء السمع يتردّد على ألسنة أساتذتي، ويشاركني الشّغف بكتاباتها كثير من المعجبين، من طلبة تتلمذوا على يديها أو قرّاء يتابعون ما تنشر.

د.بروين حبيب

وكان إعجابي بها يتجاوز الجانب الثقافي إلى الجانب النضالي عندها، وهي التي حيل بينها وبين زوجها الشاعر الفلسطيني الكبير مريد البرغوثي فمُنع من زيارة مصر. وبقيت رضوى ثابتة على مبادئها، مناصرة لقضايا التحرر وعلى رأسها القضية الفلسطينية.

وبعد سنوات من ذلك انتقلتُ إلى «دبي» مذيعة أخبار ثم كان برنامج «صواري» أول تجربة لي مع البرامج الثقافية سنة 2001، أستضيف فيه المبدعين والمبدعات، وكان يومها يعرض مباشرة من متحف دبي الوطني. ومن أوائل من فكّرت في استضافتهم لبرنامجي «رضوى عاشور»، فرحّبت بالفكرة ووافقت على الحضور، ويومها حدث لي الموقف الذي سأرويه وكشف لي من أيّ طين نقي خلقت «رضوى»، وأنها من الأشخاص الذين تطابق شخصيتهم كتاباتهم فلا يعيشون ازدواجية التنظير والممارسة، بل هم ومواقفهم توأم سيامي لا ينفصل.

بعدما وافقت «رضوى عاشور» على الحضور سألتني في أي فندق سوف تنزل فقلت لها: فندق «المتروبوليتان بالاص»، وكان يومها في دبي فندقان يحملان الاسم نفسه، أحدهما قديم مشهور ولكنه بعيد في شارع الشيخ زايد وكانت دبي في ذلك الوقت تنتهي عند أطراف هذا الشارع، وآخر جديد أقرب إلى المطار من سابقه يقع في شارع المكتوم وفيه كنا ننزل ضيوفنا.

وفي تلك الفترة كنت انتظر الضيوف لألتقيهم وأستلم منهم موادّ تفيدني في الإعداد كالصور وبعض الوثائق من الأرشيف الشخصي وقصاصات الجرائد قبل زمن «الفلاشة» والبريد الإلكتروني، فأرسل تلفزيون دبي كالعادة إلى المطار موظفا في العلاقات العامة لاستقبالها، فعلى عكس الممثلين والمطربين الذين كانوا معروفين، كان الموظف يحمل يافطة باسم الضيف إذا كان كاتبا فمهما بلغت شهرة الكاتب فهي شهرة ورقية لحروفه لا لشخصه يحتاج دوما إلى ما يثبت أنه هو.

ولسبب ما أجهله لم تلتق «رضوى عاشور» حين وصلت إلى المطار بالموظف الذي ينتظرها، وطال انتظارنا لها، وكنت بين الفينة والأخرى أسأل قسم العلاقات العامة بالتلفزيون عمّا إذا كانت الضيفة قد وصلت، وأتأكد منهم إن كانوا قد أرسلوا موظفا لاستقبالها، فالمفروض أن يكون ركّاب الدرجة الأولى أوّل الخارجين. وتملّكني القلق حين كان يصلني الجواب بالسّلب، قلق مزدوج أوّله أين اختفت الضيفة؟ وثانيه عن مصير البرنامج فقد كان يبثّ مباشرة، وبعد انتظار أحسسته طويلا جدًا رنّ هاتفي مُظهرا على شاشته رقما أرضيّا محليّا، وما أن فتحته حتى وصلني صوتها دافئا ودودا: «بروين صباح الخير»! وكنت متلهفة لسماع ماحدث لها، فأخبرتني أنها حين خرجت من المطار لم تجد أحدا بانتظارها، فمكثت بعض الوقت ثم استقلّت سيارة أجرة إلى الفندق، وحين لم تجد حجزا باسمها دفعتْ ببطاقتها المصرفية. واتّضحت القصّة لي حين انتبهتُ إلى أنّها في الفندق الآخر الذي يحمل الاسم نفسه بشارع الشيخ زايد. اعتذرت منها عن الالتباس الذي حصل، وسارعت إلى الفندق للقائها، وما أن رأيتها حتى أسمعتها إحدى جملها التي ذهبت مذهب الأمثال «أبدو هشّة كورقة خريف أسلمت نفسها للهواء قبل أن تستقر على الأرض، كيف ناطحتُ إذن» فضحكت، وبعد أن ثَبَتُّ الحجز في الفندق الذي اختارته الأقدار لها امتدّ بيننا حوار طويل عن الكتابة والكتاب كأننا نستأنف حديثا بدأناه من قبل.

وعلى مائدة عشاء بمطعم إيطالي تحدثنا مطوّلا عن «ثلاثية غرناطة» فقد كانت الرواية يومذاك حديث الصحف والمثقفين، وروت لي عن طفولتها كيف ولدت في بيت يطلّ على كوبري عباس حيث كان مسرحًا للمظاهرات ضد الإنجليز، وكيف ربطت هذه الإشارةَ باحتجاجها على الظلم وعلى الاستعمار، وتضامنها مع القضايا الكبرى، فحتى أنّ ما كان يجمعها بمريد البرغوثي يتجاوز الرابطة الزوجية إلى قضايا أكبر تتعلق بمصير أمة ومسيرة نضال.

وازداد اعجابي بشخصيتها الدافئة المتواضعة بعد حادثة المطار، ففي يوم التصوير حين سألتها عن أيّة طلبات لها للماكياج وتصفيف الشّعر، أجابتني ببساطة آسرة: «أبدا أبدا يا بروين، أنا أحط كحل وكحلي معايا وأمشّط شعري بنفسي» فذهلت من هذه المرأة غير متطلبة البسيطة والعمليّة في آن واحد، وامتد لطفها ليشمل كلّ فريق العمل، ولا زلت أذكر أنها أخذت صورا مع السائق، وكان عندنا كشكول أشبه بالدفتر الشرفي يسجّل فيه الضيوف انطباعاتهم فكتبت فيه شكرا جماعيا للفريق كله. وكانت تصرفاتها العفوية وتواضعها اللافت في أي مكان تحلّ فيه يستدعي إلى ذهني نقيضه من ضيوف يتذمّرون من أدنى شيء، ويهددون بالانسحاب إن لم يوفّر لهم التلفزيون مرافقا، أو لم يعجبهم الماكياج.

لم التق رضوى عقدا كاملا إلى أن فازت بجائزة العويس الثقافية عن القصة والرواية والمسرحية سنة 2011، وقد كنت أقدم سنويّا حفل الجائزة، فقدّمتها بمحبة غامرة مستحضرة ما تتميز به من علم وإبداع، وفوق ذلك كله إنسانية طافحة، وحين نزلت عن المنصة قبّلتني وشكرتني، ولكن لم تكن لنا فرصة لحديث مطول.

وتشاء الأقدار أن تتوفى «رضوى عاشور» بعد ذلك بسنوات ثلاث، وأجتمع مع زوجها المرحوم «مريد البرغوثي» محكّمين في جائزة البوكر، حيث كنت في عضوية اللجنة التي كان هو رئيسها، وفي أول لقاء بيننا في مطار اسطنبول حين عقدنا اجتماع إعلان القائمة الطويلة للجائزة، وكان ذلك بعد وفاتها بأشهر قليلة، ذكرناها، ولا يمكن أن تتحدث مع مريد البرغوثي حديثا دون أن تكون رضوى حاضرة فيه، أخبرته عن لقائي بها في جائزة العويس فقال لي : «على فكرة رضوى قالت لي: البتّ بروين قدّمتني بشكل حلو جدّا جدّا» فسرّني أنها رضيت عن تقديمي لها، ولم تفاجئني منها قدرتها على إسعاد الآخرين حيّة وميّتة.

أكثر ما لفتني في «رضوى عاشور» بغضّ النظر عن قيمتها الإبداعية والأكاديمية الجانب الإنساني فيها وتواضع الشخص الواثق من نفسه الممتلئ.

لم تكن النجومية والأضواء تعنيها كثيرا، ففي علاقتها مع طلبتها والناس من حولها كانت شخصا عملانيا ينطبق عليه وصف المثقف العضوي عند غرامشي. ولا زلت إلى الآن كلّما أتعرض لموقف مع ضيف من ضيوف برنامجي أو أصادف مشكلة حول الإقامة أو الاستقبال، وليس نادرا أن يحدث ذلك مع بعض من تضخّمت ذواتهم، تقفز إلى ذهني حكاية «رضوى» والمطار، ودرس التفهم والبساطة والتصرف العلمي الذي نحتاج أن نتعلمه من امرأة لا أجد ما أصفها به سوى أن أقول بأنّني لم أر أخفّ على قلبي من «رضوى».

حول المشترك بين نابكوف وواسيني الأعرج

أصـــابـــع لـــــوليتـــا

يبهرك ويأخذك لعوالم أخرى يصعب عليك الفكاك منها. أسلوبه رشيق كالفراشة، ناعم كأصابع (لوليتا) عندما تعزف لحنها الجميل، فهل أجمل من تلك الأصابع؟، يضعك في عوالمه المفتوحة على كل شيْ: الموسيقي، الرسم، المسرح، السينما، عالم الموضة، التاريخ، كبار الأدباء والكتّاب، روايات تود أن تقرأها، مجلات تتصفحها من خلال رواية، ورود تستنشق عبيرها، طبيعة خلابة في بلاد تتمنى زيارتها، بحيرة تأمل أن تجلس قبالتها، مقهى تود أن ترتشف قهوة فيه، مسرح تشاهد احداثه، كل ذلك تجده قي روايات المبدع واسيني الأعرج، الذي أبدع ومازال يبدع، وكلما انتهيت من رواية له تجد الأخرى لاتقل ألقًا وإبداعًا. إنه ساحر يبدع سحره ليحسسنا بقيمة الحياة وأجمل اللحظات التي يجب أن نعيشها حتى لا تتسرب من بين أيدينا وتضيع منا، فالحياة قصيرة ويجب أن نعيشها طولًا وعرضًا بكل دقائقها، بل بكل ثوانيها دون أن نندم على ما فات، فالحياة جميلة وأُعطيت لنا لمرة واحدة، فما علينا إلا أن نعيشها ونستمتع بها إلى آخر جرعة حلوة نتذوقها وننتشي بها، ولا نترك للصدف أن تلعب بنا وتأخذ منا ملذاتها.

حميد الملا

مع واسيني الأعــرج نغوص في أعماق الجغرافيا والتاريخ، ومعه نشعر دومًا براحة نفسية لسرده المرهف والسلس، فلا تجد كبير عناء لتفهم ما يريد قوله لقرائه، بل يصلهم بحبله السردي ليرسم لهم صورة جميلة من الواقع الملموس لأشخاص واقعيين من لحم ودم لهم أحاسيس ومشاعر. يحبون في أغلب الأحيان، وينسون ويَسمون على الأحقاد، وإنسانيون إلى أبعد الحدود، فالحس الإنساني حاضر دومًا والحب ملازم لإبداعاته.

من يعيش مع رواية (أصابع لوليتا) لا بد وأن يُحبّ تلك الفتاة المفعمة بالجمال وبالطاقة، ويتعاطف أيضا مع معاناتها مع الأب الوحش الذي دمر حياتها باغتصابها، وأبقاها على شفير حفرة من الانتحار، لولا قوة إرادتها ومصادفة اهتمامها بالروايات ولقاءها مع من تعتقد بأنه من بسط لها فراش النجاة، كاتبها المفضل يونس مارينا.

لو التقى أي منا لوليتا ولو مجازًا في أي من عروض الأزياء في تلفزيونات الموضة لوقع في شباكها وعاش حبًا جارفًا غير عادي لما تتدفق به من حيوية ونشاط، على الرغم مما عانته مع ذلك الأب السادي، وما لاقته من محــن رغم حداثة سنها. تبقى صورة لوليتا حاضرة في كل طلة على محطة من محطات الموضة، فلوليتا، ليست فقط موديلاً، وإنما هي ذات قوام ممشوق وصورة من آلهة الجمال والحسن والتصوير الإبداعي، فآلهة الإبداع خلقت شكلاً على مقاسها سمته (لوليتا) واخترقت به كل أفئدة المحبين من مختلف الأذواق، فلوليتا أقرب لكل محبي الجمال وعاشقي الحياة. أفلا تحرك كل تلك الألوان الجميلة وكل ذلك السحر والعطور من مختلف الماركات العالمية فيك حاسة سحر الحياة وملذاتها؟. لوليتا الجميلة دومًا تفاجئك بأناقتها المبهرة، ساحرة في وجودها وغيابها، في سفراتها لعروض الأزياء تشعرك بوجودها وكأنها فراشة تحلق حواليك رغم بعدها عنك. تتمنى أن تتلبس شخصية لوليتا وأن تعيش فرحها وحزنها من الصورة التي رسمها واسيني الأعرج، فالوصف في الرواية يفوق ما لا يقاس بما تجعله التمنيات البصرية ملموساً، فلوليتا أبعد من أن تكون صورة في إطار مرسوم لها سلفًا، بل هي كائن لا يمكن أن تحتويه الكلمات، فكيف ستبدأ الحياة دون طلة لوليتا الحيوية ونشاطها المتدفق دومًا وإبداعاتها الخلاقة أبدًا. تلتمع في عينيها نظرة من نوع خاص، نظرة جريئة ومغرية معاً، لتشدّ إليها الناظر.

أحببتُ رواية (أصابع لوليتا)، كما أحببتُ كل روايات واسيني الأعرج، وبقي أن أعرج على ما تبقى لي من دهشة حلوة لطريقة السرد القصصي الفائق الجمال والروعة والحلاوة، وقدرته اللغوية على الإدهاش لكل ما ابتدعه من سرديات ممتعة، فالروايات العظيمة تجعلنا نسمو بأحاسيسنا ورهافتنا تجاه تعقيدات الحياة والناس، كما تقول آذر نفيسي في روايتها الجميلة أيضاً (أن تقرأ لوليتا في طهران).

أحبك لوليتا وأحب خفتك وجمالك وإبداعك وصبرك وتخطيك للصعاب، فالحياة إذا لم نفهمها ستصعب علينا، وبالحب والتسامح والغفران يمكننا العيش بأمان. إنسى مآسيك ومشاكلك، وضع هدفًا لحياتك مثلما فعل يونس مارينا في (أصابع لوليتا) لينظر للحياة من منظار آخر، منظار الأمل والنجاح والتغلب على المصاعب رغم الإحباطات والإخفاقات والانكسارات، فالحياة أكبر من ذلك ونستحق أن نعيشها.

لا شك أن كل كلمة تتدفق من مسام جلدها تنطق بشيء له معنى يعبر عن الكم الهائل من الأحزان التي عاشتها، ولكن يبقى الشيء الوحيد المرتبط بتلك الشخصية، ألا وهو الأمل في تجاوز المستحيل، وهذا ما نجحت فيه وتجاوزته بفعل تلك الإرادة الفولاذية، فبين لوليتا فلاديمير نابوكوف وأصابع لوليتا قرابة ولو من بعيد، فلوليتا نابكوف في روايته تلك طفلة بهية الحسن لا يتعدى عمرها الثانية عشرة، لم تجد من تلجأ إليه بعد وفاة والديها، فتتعرض للاغتصاب من قبل زوج والدتها، هومبرت، الذي حاول أن يجعل منها عشيقة له وجزءاً من هوسه المريض وحبه القاتل فدّمرها، وظلت حبيسة لذلك الوحش المنحرف الذي قيّد وسيطر على حياتها وجال بها الولايات المتحدة من أقصى الشمال لأقصى الجنوب هرباً من الملاحقات القانونية باحتجازه لقاصر واللعب بها وتحطيم حياتها ومستقبلها، هذا التصرف الخسيس من هذا الوحش الكاسر المتلاعب جعل تلك الطفلة تعيش قصة مأساوية مع رجل حقير، عديم الأخلاق بعد أن مارس الموبقات مع أخريات، والذي حطّ نظره أخيراً على تلك الطفلة واستعمل معها جميع ألاعيبه القذرة وحرمها من طفولتها، مما اضطرها للهرب منه بعد جهد جهيد.

هل هنالك يا ترى صلة قرابة بين الروايتين، خاصة وأن واسيني الأعرج قد أشار الي رواية نابكوف (لوليتا) في أكثر من موضع وبطريقة فنية، كأنه يوحي لنا بأنه استقى من تلك الرواية روايته (أصابع لوليتا)؟

نسأل ذلك لأن الخلاصة المستقاة من تلك الروايتين الرائعتين هي أن شخصياتهما تكشف لنا عن شرور مريعة، ويجب أن تجعلنا (لوليتا) جميعًا، آباء ومربين ومرشدين اجتماعيين أكثر حذرًا ووعيًا، لكي نربي وننشئ جيلاً أفضل في عالم ينعم بمزيد من الأمن والطمأنينة كما يقول الدكتور جون رأي في مقدمة رواية نابكوف (لوليتا).

« عامي التاسع عشر ...“

كيف أصبح ناظم حكمت ثوريا؟

ناظم حكمت

ناظم حكمت (اليمين) ، وصديقه والا نور الدين ، خلال رحلتهم الي انقرة ١٩٢١

في صباح الأول من يناير ١٩٢١، انطلقت باخرة محملة بالبضائع والمسافرين من مرفأ «سيركيجي» باسطنبول باتجاه البحر الأسود شمالاً. بعد إبحارها بقليل، توقفت في جزيرة «برج الفتاة « جنوب مضيق البوسفور، لتصعد علي متنها فرقة من الجنود البريطانيين لتفتيشها، والبحث عن أي شئ يمكن أن يثير الريبة. لم يجدوا شيئا، وغادروا السفينة في المحطة التالية. تحت أكوام من أكياس القطن المتكدسة علي ظهر السفينة، تخفى شابان حابسين أنفاسهما منتظرين زوال الخطر. بعد مغادرة الجنود، واصلت السفينة رحلتها شمالاً، وخرج الشابان من تحت أكوام القطن متنفسين الصعداء، فقد أفلتا من الحصار المشدد الذي فرضته قوات الاحتلال علي المدينة آنذاك خوفا من تسلل وهروب الشباب إلى الأناضول تلبية لنداء الزعيم مصطفي كمال أتاتورك للالتحاق بحرب التحرير من أجل الاستقلال.

محمد ديتو

لم يكن الشابان من فقراء اسطنبول، بل كانا من أبناء عوائل ارستقراطية عريقة، فالأول «والا نور الدين» ذو العشرين سنة كان ابناً لحاكم ولاية بيروت العثمانية، أما الثاني والبالغ من العمر تسعة عشر عاما، فينتمي إلى نسب يزخر بالباشوات من جهة والده ووالدته علي حد سواء. سنعرفه بإسم «ناظم حكمت»، وسنعرف بعد عقود لاحقة تفاصيل مغامرتهما بفضل الكتاب الذي كرّسه «والا نور الدين» لصديقه بعنوان « ناظم حكمت مرّ من هنا».

كانا صديقي طفولة، وجمعهما شغف جامح بالشعر منذ سنين مراهقتهما المبكرة، كما جمعهما أيضا احساس خانق بإنسداد الآفاق أمام حياتهما المستقبلية، خاصة في تلك السنين المضطربة التي أعقبت انتهاء الحرب العالمية الأولى، وبدء إنهيار الإمبراطورية العثمانية مترامية الأطراف، وتكالب القوى المنتصرة لتقسيم تركيا، وإحتلال اسطنبول من قبل بريطانيا وفرنسا وإيطاليا.

كان ناظم حكمت يعيش أزمةً نفسيةً صعبة، ناجمة عن تفكك أسرته وانفصال والدته عن أبيه، بالإضافة إلى تسريحه من المدرسة البحرية التي كان يدرس بها، بسبب المرض الذي أصاب رئتيه. قيود سلطات الاحتلال علي حرية التعبير والنشر، دفعت بالعشرات من الشعراء والأدباء الي مغادرة اسطنبول، بحثا عن بيئة آمنة لهم، فما تشعر به وتفكر فيه غير مسموح نشره.

كما هي الحال بالنسبة للعديد من أبناء جيله، كانت هناك ثلاث خيارات أمام ناظم: البقاء في اسطنبول والتأقلم والانتظار، المغادرة والهجرة إلى الغرب (أوروبا أو أمريكا)، أو الإلتحاق بصفوف المقاومة ضد الاحتلال التي كان يتزعمها مصطفى كمال (أتاتورك). إختار مع صديقه «والا نور الدين» الخيار الأخير، وخططا لشهور عديدة مسألة خروجهما من اسطنبول والذهاب إلى أنقرة معقل المقاومة، حالمين بأنهما سيساهمان بقلميهما وشعرهما في تلبية نداء الوطن المحتل.

بعد وصولهما إلى بلدة «إيني بولو» المطلة علي ساحل البحر الأسود، انتظر الصديقان فترة إسبوعين لوصول تصاريح الموافقة الأمنية من أنقرة حتي يتمكنا من مواصلة رحلتهما. لعبت الصدفة دوراً في تعرفهما في أحد مقاهي البلدة علي أربعة شبان كانوا ينتظرون أيضاً وصول تصاريحهم، وإتضح أنهم كانوا طلبة يدرسون في برلين وعادوا إلى اسطنبول في أعقاب قمع انتفاضة 1919 العمالية بقيادة «كارل ليبكنخت»، و»روزا لوكسمبورغ»، واللذين اشتهرا باسم «السبارتاكوسيين». تأثر هؤلاء الطلبة الأتراك

الأربعة بشدة بما شاهدوه في برلين إبان الانتفاضة، وتحولوا إلى شيوعيين متحمسين علي إثر تلك التجربة. قضى ناظم حكمت وصديقه والا نور الدين ليال طويلة في حوارات ونقاشات مع هؤلاء الشبان الأربعة، وخاصة قائدهم «صادق آهي» ذي الشال الأحمر، وجذبتهما بشكل خاص أفكار الماركسية والبلاشفة وما سمعاه لأول مرة عن ثورة أكتوبر الإشتراكية في روسيا، وكيف أنه في أعقاب الإمبراطورية القيصرية المستبدة تأسست دولة يحكمها العمال والفلاحون.

بعد وصول الموافقة الأمنية، انطلق الصديقان في رحلتهما سيراً على الأقدام لمدة تسعة أيام وصولاً إلى أنقره. ما شاهده ناظم حكمت خلال هذه الرحلة سيحفر في ذاكرته إلى أخر أيام عمره: البؤس والفقر الشديد في القرى، وسط مشاهد مذهلة للطبيعة الخلابة في الأناضول. هذا التناقض الصارخ بين ما هو متاح من ثروات الطبيعة وجمالها، وتعاسة الحالة البشرية والظلم المحيق بها، سيؤثر عميقاً في وجدان الشاعر الشاب، ويلعب دوراً حاسماً في تشكّل قناعاته الفكرية لاحقاً.

بعد وصولهما إلى أنقره، كانت توقعات الشابين بأنهما سيعملان في إدارة المطبوعات، وسيساهمان في كتابة المقالات الصحفية والأشعار الدعائية والتحريضية، ولكن سرعان ما خابت آمالهما عندما تمت افادتهما بعدم توفر وظائف شاغرة لهما، وتمّ إرسالهما إلى وزارة المعارف التي عرضت عليهما العمل كمعلمين في بلدة «بولو».

ذهب ناظم وصديقه إلى تلك البلدة الصغيرة الواقعة في منتصف الطريق بين أنقره واسطنبول، وقضيا بضعة شهور هناك كمعلمين، إلا أن الوضع لم يرق لكليهما، فقد كانا يتحرقان حماساً لفعل شيئ ذي معنى وقيمة وسط ما يعيشه وطنهما من مخاض عنيف في حرب الاستقلال. تعرفا في «بولو» علي قاض شاب باسم «ضياء حلمي» متقد الحماس للأفكار الإشتراكية ، وكان دائم الإشادة بثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا التي اعتبرها النسخة الحديثة للثورة الفرنسية الداعية للحرية والمساواة والإخاء. في «بولو» بدأت قناعات ناظم حكمت الفكرية تتجه بوضوح أكثر نحو الماركسية بوصفها «مشروعاً» لبناء مجتمع إنساني خال من الاستغلال، وإطاراً فكرياً لفهم الوجود، الأمر الذي دفعه للتفكير جدياً مع صديقه للسفر لمشاهدة هذا العالم الجديد الذي يتم تشييده في روسيا البلشفية، وهذا ما فعلاه بالضبط بعد بدء العطلة الصيفية، إذ شدّا الرحال وغادرا الى مدينة «باتومي» في جورجيا التي كانت تحت سيطرة البلاشفة. هناك سيلتقيان لاحقاً بشخصية ستلعب دوراً أساسيا في تنظيمهما حزبياً هو «أحمد جواد» ، أديب وشاعر ويتقن عشر لغات، والأهم أنه كان قائد منظمة الحزب الشيوعي التركي في مدينة «باتومي» . في الثاني من ديسمبر 1921 (وفق سجلات الأرشيف الروسي) تمّ تسجيل ناظم حكمت مع صديقه والا نور الدين كعضوين مرشحين لعضوية الحزب الشيوعي التركي في مدينة باتومي علي ساحل البحر الأسود. (سيتم اعتبارهما عضوين فقط في عام 1924 بعد انتهاء دراستهما في جامعة كادحي الشرق).

منذ انطلاقهما متخفين علي متن باخرة مغادرة اسطنبول في الأول من يناير ذلك العام، حتي بدء حياتهما الجديدة كثوريين محترفين وفق هوية بلشفية واضحة في ديسمبر، إنقضى إثنا عشر شهراً حافلة بالمغامرات التي اختلطت فيها الضرورة بالصدفة، الخطة بالارتجال، واشتبك فيها الخيار السياسي مع الخيار الأخلاقي، ليتمخض عن هذه المرحلة ناظم حكمت كما نعرفه، ويعرفه الملايين في العالم، الشاعر الثابت سياسياً وفكرياً، والمتحوّل شعرياً ضمن جدلية الشكل والمضمون.

عامه التاسع عشر

من الصعوبة فهم ناظم حكمت، كإنسان، وكشاعر، إذا لم نفهم مكانة «عامه التاسع عشر «. وربما سيكون من المجدي أن نسافر، ذهنياً، عبر الزمن، إلى مطلع العشرينات من القرن العشرين، لنفهم كيف تشابكت خيوط السياق العالمي، والإقليمي، والمحلي، والشخصي، ونسجت مصير وخيارات ليس ناظم حكمت فقط، بل الألآف من أبناء جيله. فما كانوا يبحثون عنه بالتحديد هو منظور جديد للعالم، يمنحهم التفاؤل والأمل، والوضوح الفكري، بعد انهيار القديم أمام أعينهم.

بعد عشر سنوات من رحلته تلك، وفي عمر الثامنة والعشرين، سيكتب ناظم حكمت قصيدته «عامي التاسع عشر»:

«أنت يا أول أطفالي
أنت أيها المعلم الأول لي، يا أول الرفاق،
أنت ياعامي التاسع عشر
أحترمك كأمي، وسأبقى أحترمك.
أسير على أول الطرق التي ذرعتها، وسأبقى أسير».

المثير أن قصيدته الشهيرة هذه، كتبها عام 1930 في أعقاب فصله من الحزب، في ملابسات غامضة، وخلافات داخلية تمّ اتهامه علي إثرها من قبل قيادة الحزب آنذاك بأنه يقود نشاطاً انفصالياً. ولكن ما تبينه تلك القصيدة هو أن قناعات ناظم حكمت الأيديولوجية، ستتجاوز أي إطار حزبي ينشط في ظله. ناظم حكمت سيبقى هو نفسه، سواء كان داخل الحزب أو خارجه. عامه التاسع عشر سيمنحه الثبات النفسي، والوضوح الفكري، طيلة حياته.

طيف عامه التاسع عشر سيصبح المعيار الذي يقيس به نفسه كلما تقدّم بالعمر. عندما بلغ الثامنة والأربعين، وفي التاسع من يناير 1950، يكتب رسالة إلى ابنه محمد: «خطّ الشيب شعر رأسي، وجهي كله تجاعيد، كبدي تؤلمني، وألم قلبي مستمر، ولكن في قصائدي فأنا لا زلت ناظم حكمت في عامه التاسع عشر. حتي في اليوم الذي سيدفنوني في الأرض، سيتمكن عامي التاسع عشر من الوقوف شامخاً فوق جثتي والقول: أحسنت أيها العجوز، بقيت شاباً، ولم تكبر أبداً.»

بعد ذلك بعشر سنوات، وفي قصيدة طويلة بعنوان «ذات الشعر الذهبي» في سنة 1961، مهداة إلى زوجته «فيرا»، سيلتقي الشاعر ذو التاسعة والخمسين من العمر بشبيهه ذي التسعة عشرة عاماً في لقاء حميمي، ومشهد تقشعر له الأبدان. سيختار ناظم حكمت ساحة بوشكين في موسكو مكاناً للقاء شبيهه (عامه التاسع عشر). تغيّرت ملامح المكان والأشخاص خلال أربعين سنة، وسيقارن بين حالته الراهنة، بملابسه الدافئة، ووضعه آنذاك بثيابه الرثة:

«هذا هو المكان الذي التقيت فيه بعامي التاسع عشر
لا عنده صورتي
ولا أنا أحتفظ بصوره
ورغم ذلك تعرفنا على بعضنا فوراً
حاول مصافحتي
مددت يدي إليه
ولكن أيادينا لم تتلامس
فأربعين سنة تقف حاجزاً بيننا

***

ليس لديه أي فكرة عما سيحدث له
أنا فقط أعرف ماذا سيحدث
لأنني صدّقت كل ما يؤمن به
وأحببت كل النساء اللواتي سيحبّهن
كتبت كل القصائد التي سيكتبها
مكثت في جميع السجون التي أعتقل فيها
ومررت بكل المدن التي سافر إليها
كل ما سيمرض به، مرضت به،
كل الأحلام التي سيحلم بها، حلمت بها،
وكل ما سيفقده، فقدته...».

سيطارده طيف «التاسعة عشر» حتي على أرض الواقع الفعلي، ففي مصادفة لا تخلو من مغزى عميق، في عام 1960، وخلال مظاهرة طلابية في ساحة «بايزيد» في اسطنبول، تمّ اطلاق النار علي طالب يبلغ التاسعة عشرة من عمره. على الفور سيكتب ناظم حكمت قصيدته «جثة في ساحة بايزيد»:

«جثة ملقاة في ساحة بايزيد
شاب في التاسعة عشرة من عمره

***

في يدٍ واحدة كتاب
وفي الأخرى حلم انتهى قبل أن يبدأ».

سيرة ابن الرجل الذي يقطع الحجارة في أعماق البحار!

هـوامش مـــن سيـــرة بـــابـــا ياسيـــن

ولد محمد خليفة حسن ياسين في مدينة الحد الساحلية شمال شرق مملكة البحرين في العام ١٩٤٦، ومسمى الحد في اللغة العربية يطلق على اللسان الممتد من الرمال في البحر، وأهل البحر في الخليج العربي يطلقونه على كل شريط رملي يظهر في عرض البحر ويمنع السفن من اجتيازه حتى في ساعات المد، لذا تربى «بابا ياسين» في بيئة بحرية يمتهن أهلها كل مهن البحر وما حولها، فتشبع من هوائها ومائها ونشأ طفلا يتبع أبيه في خطاه وفي مهنته.

زهراء المنصور

لم يكن والده لين الطبع معه، قسوة البحر عودته على الخشونة التي أرادها لابنه، لم ينزعج حينما سأله أحد رفاق البحر عن ابنه الذي اشتهر بمونولوجاته في المدرسة وخارج المدرسة وسأله ببساطة هل توفي فعلا كما يقال؟ فرد عليه الوالد بنفس البساطة: «أكا ولدي موجود!»

واجه بابا ياسين الموت طفلا مرات عدة؛ أولها كان رضيعا في «قماطه» حين عانى من أمراض الطفولة المعتادة وحين نقل للدكتور الوحيد في المحرق «بندر كار» أخبر والده أنه لن يعيش كثيرا من شدة المعاناة، لكن الأقدار تنقذه وتتنبأ جارتهم أن هذا الطفل المريض سيكون له شأن كبير! ومرة أخرى وفي عمر السنتين حين أفلتت يداه من يد والده على ساحل البحر، وتمت مشاهدته «طافحا» ليتم إنقاذه ويفلت مجددا.

ولعل الموت كان شائعا بالطريقة التي يسلم فيها الناس بالموت هكذا، باعتباره قدرا ألهيا لا تدخل فيه، فلا هم يخشونه ولا ينتظرونه لكنهم قد يتعرضون له، فحين كان بابا ياسين طفلا كان يرافق والده في البحر؛ والده الذي يعبر عن جيل كبير من الآباء الذين ذاقوا قسوة الحياة فصارت طبعا متأصلا في سلوكهم مع ابناءهم، ليقينهم أن هذا سيمكنهم من مواجهة مصاعب الحياة، فكان يساعد والده في عمله الشاق حتى وصل الماء للحد الذي لا يتمكن الصبي من التنفس! وحتى مع حدوث هذا لم يلن قلب الوالد، إذ اعتبره تمرينا آخر على مواجهة أخطار المهنة.

أما المسمى الوظيفي الذي ابتكره بابا ياسين لوالده الذي كان يعمل عملا شاقا ومؤلما في مقابل مردود بسيط، فقد كان في اثناء مرحلة انتقاء الطلاب الذين سيتجهون للدراسة في الثانوية ليكونوا معلمين، ولما كان الإقبال شديدا على هذا القسم، حاول القائمون على المسألة تقليل العدد عبر التفاوض وإقناع بعض الطلبة بالتحوّل لتخصص آخر، خصوصا إذا كانوا أبناء ذوي مهن متواضعة، فيكون من السهل ازاحتهم لسبب أو لآخر، وقد أدرك بابا ياسين هذا وتمسك برغبته في سلك التدريس حتى مع يقينه بأنه يمكن أن يعد من أبناء البسطاء، وهكذا لجأ للتمويه وأخبر المعنيين بأن والده يعمل في قطع الحجارة من أعماق البحار، فهموا حيلته وأنقذه ذكائه من دراسة ما لا يرغب.

قرر الطفل محمد أن يرافق صديقه لبيت جدته في المحرق، بعد الحاح الأخير على أن يعودا سريعا للبيت في مدينة الحد، كان التنقل للمحرق يتطلب ركوب حافلة (البست) ودفع أجرة تكفل بها صديقه في رحلة الذهاب، ولما

دخل صديقه بيت جدته لم يخرج إلا بعد ساعات كان بابا ياسين فيها قلقا من التأخير ولخروجه خلسة دون معرفة أو استئذان أحد، وما حدث هو أن هذا الصديق انصاع لرغبة أهله في البقاء معهم، وأمر بابا ياسين بالعودة وحيدا ولا يملك أجرة العودة في الحافلة! مع إقناعه أنه في حال الوقوف بجانب باب الخروج الخلفي في الحافلة لن يطالبه أحد بتذكرة الركوب، وهكذا كان حتى جاء المحصل وهو يسأل بصوت عال مسموع: «من معاه هالياهل؟» والتفت كل الركاب لهذا الطفل المرعوب منَ الموقف وإذا بصوت يألفه جيدا يقول للمحصل بحده: «خله»، كان هذا الصوت لوالده الذي يمكن التنبؤ بما نواه لابنه من ردة الفعل! وما يذكره بابا ياسين من هذا اليوم هو أن اقتيد بغضب شديد لغرفة مظلمة، وذهب والده للبحث عن «أداة» مناسبة لتأديبه، وفي هذه الأثناء استطاع الإفلات من الغرفة ليهرب خارج البيت حتى منتصف الليل خوفا من العقاب الشديد المنتظر، إلى أن انتهت المسألة بواسطة الوالدة التي أدخلته المنزل خلسة وأعطته ما يقتات به ليهدأ ويستقر، ورغم أن الوالد قد غرس عمود الحديد (الهيب) في «حوش المنزل» امعانا في تأكيد غضبه لتصرف ابنه في عدم الاستئذان، لكنه استوعب مقدار الخوف الذي زرع في قلب الصغير واكتفى بهذا.

في الصف الثاني الابتدائي وفي مدرسة الحد الجنوبية بدأت رحلة «بابا ياسين» مع المسرح، حيث الحفل السنوي الذي تنظمه المدرسة بحضور المدرسين وأولياء الأمور والوجهاء وكانت المشاركة الأولى وبدء حياته الفنية عبر شخصية «الذئب» في مسرحية «محكمة الحيوانات» لحبه للتقليد ولمعرفة زملائه الأكبر منه سنا من المشاركين في نفس العرض هذا الموضوع، فكانت الفوهة التي جذبته إلى هذا العالم الذي أحبه وترعرع في نفسه وكبر فيه وكأنها كانت «النداهة» التي أخذته من مجال لآخر لكنها تصب في نفس مجرى العذوبة بين أكثر من فن.

لكن النقلة النوعية التي أدخلته عالم الفن والإعلام والأطفال هو ذلك المونولوج الذي قام بتأليفه له الإذاعي القدير الأستاذ عتيق سعيد معلم بابا ياسين في المرحلة الابتدائية بمدرسة الحد، والذي انتقل

إلى إذاعة البحرين لاحقا- الذي يعد من مؤسسيها- حيث كان يعد ويقدم البرامج الإذاعية المعنية بالشعر والتمثيليات التي كان لها مستمعين كثر، كما عمل مصحح لغوي للأخبار وألف كلمات أغاني لبعض الفنانين من داخل وخارج البحرين. وكان عتيق هو الواجهة الأولى لبابا ياسين في هذا العالم، حيث كتب له مونولوج الدروس الذي يقول فيه بمصاحبة الكورس أبياتا معنية بكل المواد الدراسية، وظف فيه مفردات قريبة لأجواء الطلبة وهو بذلك يضمن استحسانهم وقبولهم وأيضا قبول واستحسان الحضور، حيث حصد منها الطالب محمد ياسين وهو في الصف الخامس الابتدائي، كسوة كاملة وعشرين روبية من تاجر بحريني معروف، والأهم من كل هذا: قاموس جيب صغير هدية من الشاعر البحريني الكبير إبراهيم العريض كتب له على غلافه الداخلي بخط يده: «أخي الطالب النجيب «محمد خليفة ياسين لقد كنت موفقا في أداء أدوارك المختلفة على مسرح مدرستكم قبل أيام فعسى أن يأخذ الله بيدك أن تكون موفقا في دورك الحقيقي على مسرح الحياة..21 أبريل 1958» وقد كان! فتحت الأبواب وترتب القدر بمشيئة الله ليكون هذا الطفل الحدي ابن الرجل الذي يقطع الصخور في البحار علامة للطفولة وممثلا دراميا في المسرح الذي بدأه مبكرا جدا، وفي التلفزيون والسينما والإذاعة، والعمل المجتمعي الذي لم ينفصل عن فنه وانسانيته قبل كل شيء.

ورغم فرحة الصغير بما كسب من مال وكسوة من التاجر وقتها، ألا أنه أدرك أن القيمة في القاموس الذي كان آخر اهتماماته حين استلم جائزته أمام الطلاب، وربما أدرك منذ ذاك الوقت، أن القيمة في الأثر فقط، وعمل على هذا في عمره الذي امتد لخدمة الصغار قبل الكبار في مجتمعه ووضع بصمة لم تتكرر حتى مع وجود المحاولات والاستنساخ أو التقليد الذي لم يدم طويلا، ذلك أن العمل مع الأطفال ليست مهنة للتربح على المدى البعيد أو القريب لكن لابد للمشتغل بها أن يكون محبا حقيقيا للأطفال وشغوف بعالمهم ومؤمن بما يمنحه لهم دون انتظار مقابل، ودون أن ينفصل هذا عن هذا العالم حتى في حياته الشخصية.

ومن مدينة الحد أيضا انطلقت مواهب بابا ياسين التمثيلية فيما بعد مرحلة المدرسة وبداية المونولوجات، حيث انضم لنادي الحد الذي كان مشهورا بتقديم التمثيليات والاسكتشات المسرحية، وكان يكتب النصوص سالم الجوهر، ويمثل بالإضافة إلى ياسين عبدالرحيم خادم وعيسى أكبر وأحمد المالود وإبراهيم سعد ومحمد ناصر، للتمثيلية تقام مرة سنوية مما يعني تكريس كل الجهود في هذه المرة، ومن هذه المجموعة تم تأسيس مسرح الحد الشعبي الذي اندمج بعد ذلك مع مسرح الاتحاد بالمحرق في العام 1970.قدرته على القص واحكام القبضة على أقرانه بكف من الحكايات التي يعلقها بهم وبأسلوبه الشيق في الابتكار التلقائي، دفع معلمه للطلب من بابا ياسين وهو طفل في الابتدائية أن يلهي زملائه في وقت غياب المدرس عن الحصة بقصص يعرفها هو؛ فيخيرهم: بنهاية أو من غير؟ والفارق بينهما أن القصص التي لها نهاية معروفة وقد يكون سمعها من والديه أو من الجد والجدة، بينما القصة التي من غير نهاية يقوم فيها بابا ياسين بإعمال خياله في نسج شخصيات ووقائع وأحداث مستمرة لدرجة أنه يقسمها لأجزاء يسرد الجزء منها تلو الآخر حين يستعين به المعلم لإسكات زملائه وتهدئتهم في أوقات الدراسة وبين الدروس، وربما هذا ما فعله لاحقا في برامج الأطفال التي كان يعد لها وحيدا أو مع آخرين، بنفس النمط الجاذب لمستمعيه من الصغار حوله أو المشاهدين له عبر شاشات التلفزيون حتى صار مع الوقت أيقونة مقدم برامج الأطفال مع آخرين في الخليج وأصبح «بابا ياسين» لقبا ملازما له حتى الآن.

الشيوعي الذي عاش مؤنب الضمير

أوبنهايمر صانع قنبلة أمريكا النووية

من كتاب ألفه الأمريكيان مارتن شيروين وكاي بيرد، استقى المخرج الأمريكي اللامع كريستوفر نولان السيرة الذاتية لعالم الفيزياء الأمريكي (روبرت أوبنهايمر) ليحولها إلى فيلم – (أوبنهايمر) وهو المولود في نيويورك، من أصول ألمانية يهودية، ويطلق عليه في أمريكا (أبو القنبلة الذرية الأمريكية). في شبابه كان عضواً سرياً في الحزب الشيوعي الأمريكي بالرغم من أنه لم يعترف بذلك قط لا أمام الصحافة ولا أمام المحاكم وأجهزة الامن، كما أن شقيقه (فرانك) وزوجته كانا أيضا عضوين نشطيين في الحزب، وصولاً إلى صديقته المقربة التي انتحرت فيما بعد .

في أواسط الثلاثينات وأثر الركود الاقتصادي الكبير الذي نشر الفقر والعوز في أمريكا استطاع الحزب الشيوعي أن يجذب إليه آلاف الأعضاء الجدد ليصل عددهم إلى 75 ألف عضو في نهاية الثلاثينات وينحدر الكثير منهم من أصول مهاجرة من أوروبا الشرقية. وقتها كان أوبنهايمر قد لمع شخصه كطالب ثم كبروفيسور في العلوم الفيزيائية، وكان في وقتها نشطاً يحضر الكثير من الاجتماعات التي يعقدها الحزب الشيوعي.

عرف بعلاقاته النسائية المتعددة، وكثر الطلب عليه وعلى أعماله العلمية من الطلبة والجامعات فزادت مداخيله المادية ما مكنّه من شراء مزرعة كبيرة في صحراء لوس ألاموس في ولاية نيومكسيكو، وكان يجتمع فيها مع رفاقه وحبيباته وبعدها بزوجته المطلقة سابقاً ورفيقته الشيوعية التي عشقها وبقت معه تعيش بقية حياتها في توتر ظاهر أثر على علاقتهما وخاصة بعد انجابهما لطفلين، عهد الزوجان أحدهما بتربيته لرفيقين شيوعيين متزوجين بعذر عدم تفرغهما للعناية به!

هذا ما أظهره الفيلم في لقطات محزنة بشأن حياة هذا الرجل، والتناقضات التي مرّ بها من أجل أن يبني القنبلة الذرية . ينتقل الفيلم بنا بلقطات سريعة وموسيقى صاخبة إلى ما يجري في ذهن الرجل من خيال علمي لا يفارقه، وبسبب سمعته العلمية يعرض عليه الجيش الأمريكي مشروع صنع قنبلة، ذرية وكان ذلك من أكثر المشاريع سرية في تاريخ أمريكا – مشروع (منهاتن) ومقره صحراء لوس ألاموس، فيوافق على العرض ليتم بكتمان شديد الإعداد بسرية تامة لصنع القنبلة الذرية الأولى في العالم، بعد أن كانت قد تسربت أنباء للمخابرات الأمريكية أن ألمانيا تتقدم حالياً بسنتين على الأمريكان في بحوث صنع القنبلة.

يعرض الفيلم لقطات من حوارات سريعة متتابعة تبين كيف بنى الجيش الأمريكي في صحراء منعزلة مدينة كاملة لصنع وتجربة القنبلة، ومن جانب آخر المشاكل الإدارية والشخصية والعائلية للعلماء العاملين في المشروع بالإضافة إلى الاجراءات الأمنية الصارمة في الموقع لكشف الجواسيس .

وفي لقطة جانبية يعرض المخرج الاجتماع الذي جرى بين أوبنهايمر وآينشتاين قرب بحيرة حيث ينصحه العالم آينشتاين بعدم المساهمة في دمار العالم . خلال شهور يتم بناء مدينة الأبحاث في الصحراء وتجميع عائلات العلماء ويتم دعم المشروع بأكثر من ملياري دولار وتشغيل أكثر من 130 ألف فرد في أنحاء أمريكا، أي اكثر

من 50 مليار بأسعار اليوم. إنه «شيك» مفتوح من أجل الحصول على هذا السلاح، ويخوض (أوبنهايمر) صراعات جدية في إدارة هذا المختبر سنة 1943 بينما تتقدم قوات التحالف على جبهات الحرب نحو العاصمة الألمانية بعد تقهقر هتلر في الجبهة السوفيتية، ليبلغ التحالف بين الإتحاد السوفيتي وأمريكا وبريطانيا أُوجه، وهنا يستفيد الحزب الشيوعي الأمريكي من هذه المرحلة ليزيد نشاطه ويكسب مزيداً من الاعضاء فتتضاعف أنشطته بين الناس فتزيد مشاركة (أوبنهايمر) في أنشطة الحزب المتوسعة مما يجعل أعين المخابرات المركزية تراقبه وتراقب رفاقه فيخضع للتحقيق وينجو ويبقى يعمل في المشروع.

في أول مايو تدخل القوات المتحالفة برلين وينتحر هتلر وتستسلم قواته إلا أن الأمريكان يرفضون وقف إنتاج القنبلة بالرغم من أن هناك علماء في المشروع احتجوا على استمرار المشروع، ويبرر الرئيس ترومان هذا الإجراء بأن اليابان ما تزال تحارب وترفض الاستسلام فوجب تركيعها حتى يقل عدد القتلى من الجيش الأمريكي ويعود الجنود بسلام، فتجهز القنبلة التجريبية ويقوم أوبنهايمر بتجربتها في صحراء ألاموس، فتنجح التجربة وخلال أسابيع يأمر الرئيس ترومان بقذف نسختها على هيروشيما وناكازاكي ويقتل نتيجة ذلك أكثر من 220 ألف ياباني، بعدها تحتفل أمريكا باستسلام اليابان ويحتفل معها أوبنهايمر ورفاقه ولكن سرعان ما تصل الصور السينمائية للدمار الشامل في المدينتين وصور الأطفال المحروقين والضحايا الآخرين فيصاب أوبنهايمر بصدمة شخصية تؤرقه ليل نهار، فيبدأ بالعمل في الاتجاه المعاكس بعد أن وصفته وسائل الإعلام بأنه أبو القنبلة ويصبح أشهر إنسان على وجه الأرض .

بعدها تتوتر حياته وعلاقته مع زوجته ويحاول التعويض عن مافعل فيرجع إلى نشاطه مع الحزب الشيوعي ويطلق تصريحات إنسانية ويبرر نتائج عمله الوحشي بأن هاجسه كان القضاء على الفاشست الألمان واليابانيين. بعد فترة يقابله الرئيس الامريكي في مكتبه ليكافأه لكن اللقاء لا يعجب الرئيس وخاصة طلب أوبنهايمر وقف إنتاج القنبلة الهيدروجينية الأكثر فتكاً وإلغاء مختبر التصنيع في الصحراء وإرجاع الأرض إلى الهنود الحمر.

على الجانب الآخر تبدأ (الإف بي أي) التحقيق معه وملاحقته لتتحقق نبوءة صديقه آينشتاين بأنهم سيتخلون عنه حال ما يفرغون منه فيتعرض إلى سلسلة من التحقيقات وتلغى رخصته الأمنية ويجبر على حضور جلسات تحقيق مركزة يشهد ضده فيها أعزّ اصدقائه لخوفه من السلطات ثم تتم إدانته بالإهمال والتدخل في السياسة والميول الشيوعية وفي نفس الوقت يفتح الباب واسعاً له للرجوع والعمل

في تصنيع القنبلة الهيدروجينية وتحت ضغط شديد وتهديدات مثل تجريده من الرخصة الأمنية وطرده من منزله وإلغاء معاشه واتهامه بالعمالة للسوفييت وعقوبة السجن يستسلم لهم ويرجع إلى عمله ليبدأ تصنيع القنبلة الهيدروجينية ويعيش بقية حياته معذباً نفسياً يؤنبه ضميره على تسببه في موت آلاف القتلى وافتقاده للشجاعة .

أحداث الفيلم متناقضة وتطرح عدة تساؤلات مايزال المثقفون يناقشونها، فكيف يمكن أن تأتمن أمريكا على أكبر مشاريعها السرية إذا كان من يشرف عليه شيوعي، فيما هي عدو الشيوعية الأول، تروي آراء أخرى أن أوبنهايمر كان عَالماً مميزاً ومن الصعب التخلي عنه ولو كان شيوعياً فقد كانت أمريكا وأثناء الحرب الضارية مع هتلر بحاجة إلى كل مواطنيها باختلاف اتجاهاتهم، ولم تخف من الحزب الشيوعي لكونه صغيراً وغير مؤثر ونشاطات أعضائه وتقربهم من السوفييت كان مراقبا من داخل وخارج الحزب من قبل العملاء الذين تمّ تجنيدهم .

أما الرأي الأكثر راديكالية فيصف نفسه بالواقعية ويقول إن أوبنهايمر كان جاسوساً زرعته الإف بي آي داخل الحزب وكان ينقل لهم أخبار نشاطاته وبذلك كسب ثقة الحكومة الأمريكية. الواقع هو أن أعداد أعضاء الحزب قد تضاعفت أثناء الركود الاقتصادي الشامل في أمريكا من اواسط الثلاثينات إلى أواخر الحرب العالمية الثانية، ولكن تطبيق مشروع قمع الشيوعية ما بعد الحرب واستمراره لعشر سنوات متتالية من قبل السيناتور مكارثي والحزب الجمهوري كان قد شلّ الهيكل الإداري للحزب، وبدد أعضاءه بعد تهديدهم وسجنهم وتعذيبهم السري واختراع التهم لهم وطردهم من أعمالهم وفقد الآلاف من الناس وظائفهم وإدخالهم القائمة السوداء وملاحقتهم من ولاية إلى أخرى. هوليوود وحدها فقدت أكثر من 600 ممثل ومخرج وكاتب وكادر فني ولتلصق بالشيوعيين تهمة الخيانة العظمى ليتقلص عدد اعضاء الحزب الشيوعي، نتيجة هذا القمع حسب بعض المصادر إلى 10 آلاف عضو فقط .

إن المخرج المميز كريستوفر نولان قد أعدّ الحوار والسيناريو وأخرج وأشرف على إنتاج الفيلم وهو يطرح في هذا الفيلم الذي يمتد إلى 3 ساعات أسئلة تاريخية عن نشاط الحزب الشيوعي الأمريكي واليسار بشكل عام وكيف قُمع بشدة وتشتت وضعف متخذاً من قصة أوبنهايمر مظلة سياسية تاريخية .

في محاسن النسيان..

قبل سنوات كشف لي زميل استغرابه من عمق ذاكرتي وسرعة بديهتها! ابتسمت بمضض واستذكرت على الفور ابتسامة ذهول أخرى لصديقة حين سألتها «هل ما زلت عند الصفحة ٤٤ من الرواية ...؟»، أمتلك ذاكرة قوية لا ينتشل النسيان منها الأرقام أو التواريخ، الأحداث والأشخاص، رغم ضياع بوصلة الطريق.!

بتول حميد

تساورني أحياناً هواجس الإصابة بالزهايمر.. فأتساءل هل أصاب بمتلازمته المبكرة مثلما سرق ذاكرة نسرين طافش في مسلسل «شوق» وهي في مقتبل الشباب والزهوْ؟ أستيقظ من النوم بلا مفارقة لأشيائي الجيدة وأحداثي السيئة؟ هل يأكل النسيان أيامي الرديئة قبل الطيبة؟ فأغدو بلا ذكريات.. بلا خطوط وتجاعيد وتفاصيل مرهقة أو لذيذة..؟ أنسى ابتسامة أمي وتقاسيم أبي ضحكات أخوتي ومزاح صديقاتي؟ أخال أنّ النسيان هو أن تخز إبرة الذكرى قماشة قلبك ولا توجعك!

لعل ثنائية الذاكرة والنسيان من أهم الجدليات الفلسفية الشائكة التي لطالما أرقت أساتذة الفلاسفة على مر الزمن. ففي السياق اليوناني استطاع أفلاطون أن يزاوج الجهل بالنسيان والمعرفة بالتذكر، وفي الفلسفة الحديثة تمكن جون لوك أن يعزز الذاكرة ويعتبرها محدداً رئيسياً لتبيان هوية الشخص. أما نيتشه فقلب المعادلة معيداً الاعتبار للنسيان باعتباره شرطا وجودياً لسعادة الفرد والمجتمع. ومن هذه الزاوية يمكننا أن نتأمل بشكل جلي العلاقة بين بالذاكرة والنسيان. فإذا كانت السعادة هي الغاية التي لطالما بحث عنها الإنسان فهل تحقيقها منوطاً بالتذكر أم النسيان؟ وهل يمكننا خلق موازنة شعورية بينهما؟

يرى نيتشه بأن الحيوانات قد تعيش حياتها سعيدة أكثر من الإنسان؛ لأنها تخوض أيامها بلا تاريخ، فهي تعيش حاضرها كما هو ولا تخفي شيئاً، إذْ أن هذه الكائنات لا تملك إلا أن تكون صادقة كونها الأكثر قدرة على النسيان. أما البشر فيعجزون عن تجاوز بعض ذكرياتهم من أجل المضي بسعادة. لا يهتم الطفل مثلاً عند ولادته بشيء دنيوي، يخلق عوالمه الخاصة بين الألعاب والدمى ولا يستحضر شيئاً في ذهنه إلا ما هو عليه؛ لأن هذا الطفل يجهل ماضيه فلا ذاكرة تؤرق أوقاته، لكن لا يمكن لهذا الطفل أن يستمر على هذا المنوال، وسرعان ما يخرج في وقت مبكر من حالة النسيان إلى حالة التذكر، ليصبح كائناً محكوماً عليه بالأسى والشقاء.

يشدد نيتشه أن «اللاتاريخي›› و››التاريخي» عنصران ضروريان لصحة الفرد والمجتمع والكيان الثقافي؛ فالنسيان هو الذي يجعل الذاكرة تضيء جزءً من «التاريخي» وتترك الجزء الآخر غارقاً في عتمة النسيان، مما يعني أن الذاكرة تتفاعل مع الماضي على نحو انتقائي، لأن الحديث عن الإنسان ككائن محكوم بماضيه يختلف عن الحيوان الذي لا تربطه أية علاقة بماضيه، فالنسيان أو ‹‹اللاتاريخي» لا يُقصد بهما ‹‹فقدان الذاكرة›› كما لا يُقصد بالتاريخي سطوة الماضي على الحياة، وبالتالي فالنسيان المطلق والحضور الحادّ للذاكرة يشكلان خطراً على حياة الفرد بل أكثر من ذلك على حياة المجتمع والحضارة.

بإمكاننا القول إن اهتمام الجينيالوجي بالتاريخ «الذي عبر عنه فريدريش نيتشه›› يتنافى تماماً مع الاهتمام بجوهر التاريخ «كما هو الأمر في الفلسفة الميتافيزيقية›› حين تبحث عن العلة الأولى. فمنذ البداية ونيتشه يبيّن الفارق بين الحيوان والإنسان من خلال تعاملهما مع عنصري الذاكرة والنسيان، كون الإنسان كائن تاريخي بامتياز، له ذاكرة مبعثها من الماضي عكس الحيوان الذي يعد كائن لا تاريخي. لذا فإن مهمة الفيلسوف هي التفكير في التاريخ على المستوى النقدي لمساعدة الإنسان في الانفتاح على الحياة.

يتردد التاريخ عند نيتشه في 3 مناطق، فمن جهة نجد ‹‹التاريخ الأثري» وهو المتعلق بحنين البشر إلى موطنهم الأصلي ومكان نشأتهم وجذور هوياتهم، وهو المشيّد على قيّم كالإخلاص والوفاء مما يقف أمام تنامي الإبداع. يقول نيتشه إن ‹‹التاريخ الأثري›› هو القناع الذي يرتديه غير القادرين على الانسلاخ منه على كبار زمنهم، فهو القناع الذي يحاولون تقديمه مثل تعبير عن الإعجاب المشبع بعظماء زمنهم. إن هذا القناع يسمح لهم أن يغيروا المعنى الحقيقي لهذا التصور عن التاريخ إلى معنى مناقض تماما.

من منطقة ثانية يتحدث نيتشه عن «التاريخ العادياتي›› الذي يتطلب العودة إلى الماضي الأصيل الذي يحظى بالهيبة والاحترام، وفي هذه العودة استلهام حي لأمجاد الماضي بغية السمو بالحاضر إلى درجة الماضي وهذا ما يعبر عنه نيتشه «إن المعنى العادياتي لإنسان ولمدينة ولشعب بكامله يمتلك أفقا محدودا،فهو ليس بإمكانه رؤية أغلب الأشياء، والقليل مما يراه يبصره عن قرب، وبشكل منعزل››. ومن فضائل هذا التاريخ أنه قادر على المحافظة على الحياة، لكن من عيوبه عدم قدرته على خلقها لذا فهو يعوق اتخاذ قرار ناجع لكل ما هو جديد. أما في المنطقة الثالثة فالإنسان يحتاج إلى جانب «التاريخ الأثري›› و«التاريخ العادياتي›› إلى منحنى آخر من التاريخ وهو ‹‹التاريخ النقدي››، الذي يهتم بإخضاع الماضي للمساءلة والنقد، إذْ أن الحياة تحاكم الماضي عندما يغدو طاغياً على الحاضر ‹‹فكل ماضٍ يستحق الحكم عليه؛ فهذا واقع الأشياء الإنسانية التي غالباً ما تكون تحت سياط الضعف والقوة الإنسانيين، إنها ليست العدالة من تحاكم وتحكم، ولا حتى الرحمة من تنطق هنا بالحكم، ولكنها الحياة وحدها، إنها تلك القوة، أي تلك القوة المعتمة والدافعة».

صناعة التاريخ عند نيتشه تنبع من الحاضر، وهذا يعود بلا ريب إلى الأهمية التي يوليها للحياة التي تشكل عصب التاريخ حيث لا قيمة له إذا لم يكن في خدمة الحياة، وكل ذلك من أجل بناء كينونة جديدة ناقدة لطغيان الماضي على الحياة. فكيف يمكننا التحرر الانفكاك من طغيان الماضي البعيد على الحاضر الراهن؟

يرى نيتشه بأن طغيان ‹‹الثقافة التاريخية›› على الحياة هي نوع بليد من الشيخوخة التي تبدأ مع الولادة ويؤكد أن الذين يتسمون بسماتها يصلون إلى الاعتقاد الراسخ بشيخوخة البشرية، ومن بين مميزاتها النظر إلى الوراء، وتقييم الماضي واستخلاص النتائج والبحث عن عزاء، وهي قد تؤدي إلى تكوين ذاكرة التي يطلق عليها بول ريكور «الذاكرة الجريحة›› التي تجعل الإنسان حزيناً عندما يسيء استعمالها.

ويقترح نيتشه ‹‹اللا تاريخي›› الذي يعني به الفن والقدرة على النسيان و››الفوق- تاريخي» الذي يعني به القوى التي تحول نظرنا عن المصير باتجاه ما يعطي الوجود طابع الخلود، إن هذا المقترح هو البديل الحقيقي والترياق الطبيعي ضد غزو التاريخ للحياة وضد الحمى التاريخية، ويضع في الشباب ثقة كبيرة لأنهم هم الذين يرغبون في ثقافة وإنسانية أكثر شجاعة وجمال، ولا ينفي نتشه حجم المعاناة التي يعانيها الشباب أثناء مجابهته هذا الطغيان. إذْ إن هؤلاء الشباب الذين يشبههم نيتشه «بقتلة الثعابين›› يمتلكون من صحة وجسارة وأمل ما يكفيهم للانتصار للحياة والإبداع ضد الثقافة التاريخية التي تسيطر على الحاضر وتحبسه خلف جدران العدم.

تتجلى أفكار نيتشه في قدرته على تفكيك مفهوم التاريخ وتحويل العناصر الثابتة فيه إلى متغيرات، بل وقدرته على إعادة الاعتبار إلى ملكة النسيان من خلال إقامة موازنة ملهمة بين ‹‹التاريخي›› و››اللاتاريخي›› خدمة للحياة، ويشبه في ذلك تعزيز سيغموند فرويد لـ ‹‹اللا وعي››، إذْ حطم نيتشه كل المفاهيم التي بُنيت عليها فلسفة التاريخ الهادفة إلى الانحناء أمام قوة التاريخ.

الأكاذيب

السيدةُ التائبةُ عن العشق
تجمّع أكاذيبَ غرامِها في صندوق
تلفُه بقلبها الثقيل
وترميه فَي البحر
ثمَّ تطبطبُ على المرآة.

***

مقعد مهجور عليه صورة باهتة
لقلب
وقَسَم كاذبُ (للموت معا).
على جانبه تعليقُ حديث
«لم يمت أحدُ منا
هو يعيش سعيدا»

****

السلام المعلن
بعدَ حرب طويلة
أكذوبة تؤكدها
حرقةُ الأمهات الثكالى .

***

جرح لا يندمل
آثار
أصابعك الكاذبة.

***

وساداتُك أنيقة جدّا
جدّا..
لكنَّ أنفي يكذّبُ عطرَك.

رحيل الوجه الثقافي البارز إبراهيم غلوم

فقدت البحرين، والحركة الثقافية في منطقة الخليج، أحد أبرز وجوهها المميزة، برحيل الأكاديمي والناقد الدكتور إبراهيم عبدالله غلوم عن عمر ناهز الحادية والسبعين عاماً بعد معاناة طويلة من المرض، تاركاً إرثاً غنيا من الدراسات النقدية، خاصة في مجالي المسرح والسرد، فضلاً عن كتب مهمة في التاريخ الثقافي ورموزه في وطنه وفي الخليج عامة، يضاف إلى ذلك دوره المهم كناشط ثقافي بارز، رأس مجلس إدارة أسرة الأدباء والكتاب في البحرين لعدة دورات، كما سبق أن كان عميدًا لكلية الآداب بجامعة البحرين، ورئيساً ومؤسساً لقسم اللغة العربية فيها، وشارك أيضاً في تأسيس مسارح وجمعيات ثقافية واتحادات محلية وعربية، كما ساهم في صياغة مشاريع وخطط واستراتيجيات ثقافية خليجية وعربية، ورأس تحرير العديد من المجلات الأكاديمية الفكرية والثقافية.

تميّز بدراساته العميقة في تاريخ الحركة الثقافية في البحرين والمنطقة، من خلال عدد من الكتب التي كرّسها لهذا الموضوع، بينها "المسافة وإنتاج الوعي النقدي"، "الثقافة وانتاج الديمقراطية"، في سياق التحوّل الأدبي الثقافي في البحرين في الستينات، والذي راه الباحث في شموليته كونه تعبيراً عن تحولات سياسية واجتماعية عميقة، لا بد من رصدها وتتبعها وتحليل تأثيرها في الحقل الثقافي، ومدى تأثير هذا الأخير، بدوره، فيها، منطلقاً في ذلك من حقيقة أن زمناً ما "قد يطمس نصوصاً وتجارب دون أن يعني ذلك نقصها وعدم امتلاكها روح الحدث وعمق التأسيس في الوعي"، وهي رؤية صائبة تحثنا على التنقيب في المجهول من تاريخنا الثقافي، الذي قد يكون أكثر من المعلوم منه.

مثل إبراهيم غلوم، بمنجزهم الثقافي المميز، لا يغيبون حتى لو رحلوا عن الدنيا، وإنما يبقون منارات مضيئة على دروب المعرفة.

التقدمي

التقدمي العدد 191 ـ أكتوبر 2023 السنة 21 SDPA 499

رئيس التحرير: د.حسن مدن ـ مدير التحرير : فاضل الحليبي ـ سكرتير التحرير: عيسى الدرازي

تنويعات على بحر القلق

سوسن دهنيم

أتفقّد الإيقاعَ أحياناً
لأنسى فكرةَ الضجرِ المُقيم
ولستُ ممن تنتهي لسماعِه الفوضى
وقد درّبتُ سمعي جيداً:
اللحنُ سُلَّميَ الأثيرُ إلى الفؤاد
وأبسطُ الأشياءِ تكمن فيه معجزةٌ مؤجّلةٌ

خياري في الحياةِ: بأنْ أكونَ كما أنا
أما القصيدةُ فهيَ عنواني إليَّ
تدلّني إن ضاعَ وقتُ النّاسِ
تحملني إلى ما تستطيعُ
لكي أرى سبباً حقيقيا
لأهدمَ ما بنيْتُ وما كتبْتُ

هي تارةً من مجمل التقريع
تجريح على بحر مجازيٍّ لأقلقَ ما
استطعتُ

يصيرُ أحياناً:
ترى ما لا تراهُ العينُ أصلاً
تبتغي لغةً
تُعيدُ لك انتماءك للبعيدِ وللقريبِ
وللمضيءِ وللعمى
وغناءِ سيدةٍ لها طعْمُ الغيابِ
لأنها لم تنتبهْ لحضورها

أتفقّدُ الإيقاعَ
لا أنجو... ولكنّي أمُرُّ كلاجئٍ
تركَ الحدودَ وراءه
ومضى إلى المأوى... سماوياً
كما شاءت له الأقدارُ
أقدارُ البدايةِ مرَّةً
وهنيْهةً... أقدارُ بحرٍ مّا
ليمحو حلْمَهُ في موجتين وغيمةٍ

لا شيءَ أكبر من مجيء النَّص
بعد غيابِهِ في المحْبَسِ الفرْديِّ
لا لغةٌ تُعيدُ إلى المدى
باباً ونافذةً سوايَ
سواكَ
يا ابن السهو في لغةٍ
تكسَّرَ دونها هذا البكاءُ
وأنتَ من هذا الملاذِ
تُعيدُ معنى الْبَيْتِ للمعنى
وتأبى أن تنامْ
وأنتَ أنتَ على علاقةِ غُصَّةٍ
بين المصائدِ والحَمَامْ

المواد التي تحمل أسماء كتابها لا تعبر بالضرورة عن رأي المنبر التقدمي

ص. ب: 21461 ت: 17780007 Altaqadomi.bh@gmail.com